أولا: الرحالة العرب والمسلمون

obeikandl.com

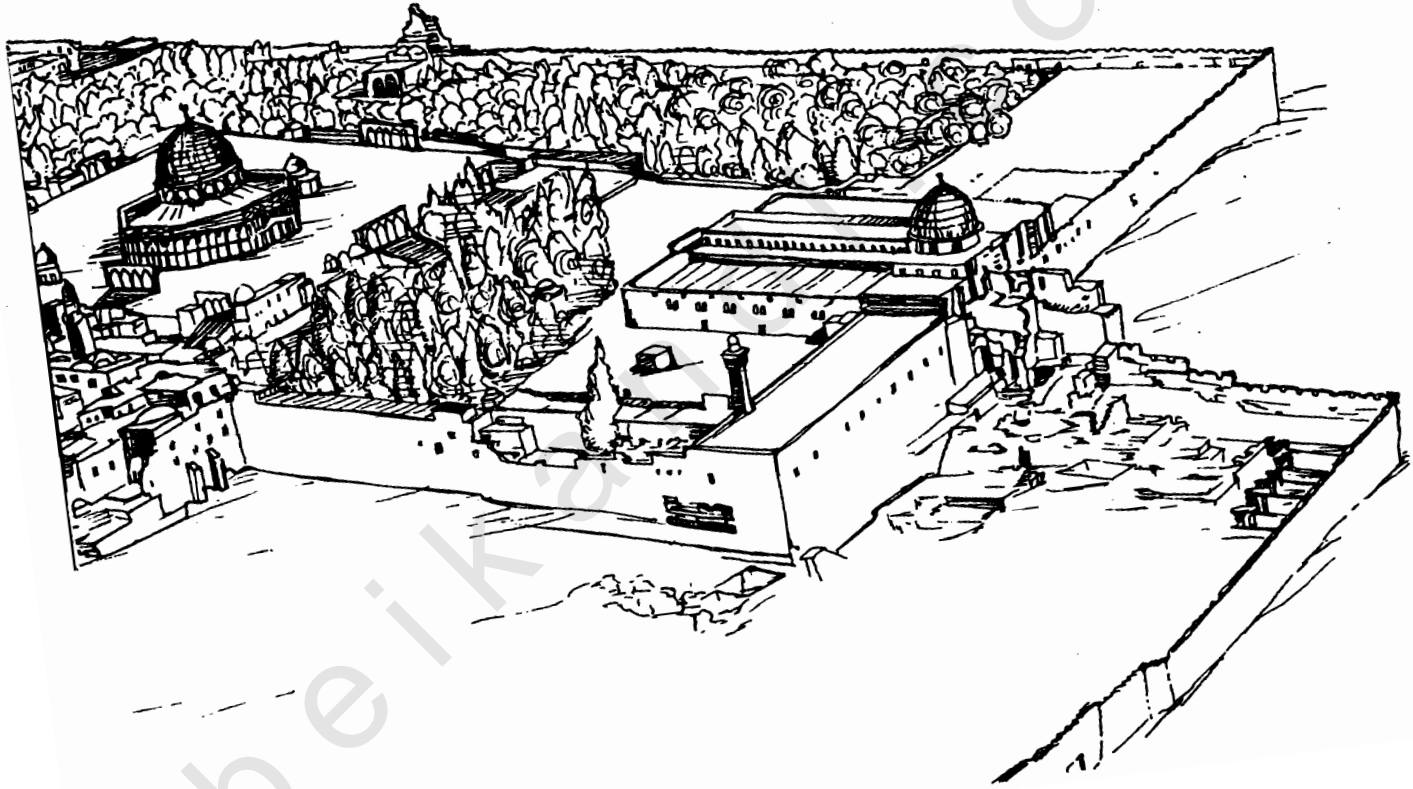

(١) رحلة ناصر خسرو إلى القدس
(١٠٤٧ ميلادية)

كتاب «سفر نامة» بالفارسية «زاد المسافر» بالعربية من أهم مصادر تاريخ القدس، خاصة فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وهو القرن الذى وقعت فيه زيارة ناصر خسرو صاحب كتاب «سفر نامة» إلى بلاد العالم الإسلامى: الشام ومصر والحجاز، وهو القرن الذى شهد فى نهايته أيضا العدوان الصليبى على العالم الإسلامى مستهدفا انتزاع المدينة المقدسة من يد المسلمين، ولذلك تأتى أهمية زيارة ناصر خسرو لهذه المدينة المقدسة، وتسجيله لوقائع هذه الزيارة فى تلك الفترة الزمنية من تاريخ القدس لتؤكد عروبتها وقداستها، وسماحة المسلمين مع أصحاب الملل المختلفة ممن أراد الحج إليها أو الاستيطان فيها. ومن أفضل الدراسات التى تناولت رحلة ناصر خسرو إلى القدس دراسة الأستاذ الدكتور عطية القوصى المنشورة فى كتاب بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس (جامعة القاهرة ـ ١٩٩٨م).

وناصر خسرو علوى ـ مؤلف سفر نامة ـ كان وزيرا فى خراسان، وكان صاحب منصب حكومى كبير أيام الدولتين الغزنوية والسلجوقية فى خراسان، اعتزل الوزارة واعتزم أداء فريضة الحج فى ربيع الآخر ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥ م، غادر مرو ـ فى ذلك العام ـ مستصحبا أخاه أبا سعيد وغلاما هنديا متجها إلى بيت المقدس. وبعد أن زار بيت المقدس قصد الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج، وبعد أدائه لفريضة الحج عاد ثانية إلى القدس، وعزم على زيارة مصر على أن يغادرها إلى مكة مرة أخرى، وقد دامت رحلته سبع سنوات فى هذه البلاد سطر أهم أحداثها فى كتابه «سفر نامة».

كتب ناصر خسرو رحلته يوما فيوما، ووصف الأماكن التى زارها بدقة متناهية، مثلما فعل عند وصفه لمسجد بيت المقدس ولبعض الاحتفالات التى كانت تقام فى بعض البلدان الإسلامية التى قام بزيارتها، مثل الاحتفال بافتتاح الخليج فى مصر، فالصفات التى يصفها والأسماء التى يذكرها ليست مما يعلق بالذاكرة سنوات عدة، وتأتى بمثل هذه الدقة التى وردت فى كتاب رحلته، وقد اتفق الكُتَّاب على هذا وإن اختلفوا فى تحديد التاريخ الذى كتب فيه «سفر نامة»، فمنهم من يرجح كتابته سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦٠م، ومنهم من يؤكد أنها سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، ومنهم من يؤكد أن ناصر خسرو جمع مذكراته ثم كتب «سفر نامة» بعد عودته إلى خراسان مباشرة حين عاد إلى وطنه بعد غيبة سبع سنوات (٤٤٤هـ/ ١٥٠٢م).

كان ناصر خسرو أمينا فى كتاباته، إذا رأى شيئا رأى العين نص على ذلك نصا، وإذا سمع عن شىء رواه وجعل العهدة على راويه.

وفى ضوء ما نشر من كتب ناصر خسرو نجد أن رحلته التى سجلها فى «سفر نامة» تنقسم إلى مراحل ثلاث:

الأولى: تبدأ من قيامه من مرو فى ربيع الآخر ٤٣٧هـ/ أكتوبر ١٠٤٥م، وتنتهى ببلوغه القاهرة فى ٧ صفر ٤٣٩ هـ/ ٤ أغسطس ١٠٤٧م.

والمرحلة الثانية: إقامته فى مصر من ٧ صفر ٤٣٩ هـ/ ٤ أغسطس ١٠٤٧م إلى أواخر جمادى الثانية ٤٤٢ هـ/ أواخر أكتوبر ١٠٥٠م.

والمرحلة الثالثة: عودته إلى بلخ عن طريق الحجاز والبصرة وتبدأ منذ قيامه من مصر وتنتهى فى ٢٦ جمادى الآخرة ٤٤٤ هـ/ ٢٦ أكتوبر ١٠٥٢م.

وقد جاءت زيارة ناصر خسرو لبيت المقدس فى المرحلة الأولى من رحلته قادما إليها من طرابلس على الساحل السورى، التى يقول: إنها تبعد عن طرابلس ستة وخمسين فرسخا (١٦٨ ميلا)، حيث إن الفرسخ يساوى ثلاثة أميال، وتبعد عن بلخ ستة وسبعين وثمانمائة فرسخ (٢٦٢٨ ميلا).

وقد ذكر ناصر خسرو أنه بلغ بيت المقدس ـ قادما من طرابلس ـ فى الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ هـ/ ١٦ مارس ١٠٤٧م.

ثم يشير ناصر خسرو إلى عادة إسلامية تظهر قدسية هذه المدينة، وهى ذهاب من لم يستطع من المسلمين الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج من أهل الشام إلى القدس وذبح الأضحية هناك، وأنه فى بعض السنين حضر إلى هذه المدينة فى أوائل ذى الحجة للقيام بهذه السُنة ـ وهى سُنة الأضحية ـ أكثر من ٢٠ ألف شخص مصطحبين معهم أبناءهم.

كذلك يتحدث ناصر خسرو عن مجىء كثير من النصارى واليهود لزيارة القدس وزيارة كنيسة القيامة ومعبد اليهود، مما يؤكد تسامح المسلمين مع أهل الذمة المسيحيين واليهود، والسماح لهم بأداء مراسمهم الدينية فى القدس.

وقد وصف هذه الكنيسة التى سماها كنيسة بيعة القمامة فى كتابه وأعطاها وصفا جميلا، ثم يتحدث ناصر خسرو بتفصيل زائد عن وصفه لبيت المقدس، ويسرد بالتفصيل وصف المسجد الكبير الذى أطلق عليه مسجد مهد عيسى، ثم يتحدث عن المسجد الأقصى، ثم ينتقل إلى وصف الدكة التى بوسط ساحة المسجد، والصخرة التى كانت قبلة الإسلام، ثم يصف قبة الصخرة بالتفصيل، وكذا القباب الأخرى، وذكر ناصر خسرو أنه بعد فراغه من زيارة بيت المقدس عزم على زيارة مسجد إبراهيم الخليل فى يوم الأربعاء غرة ذى القعدة سنة ٤٣٨هـ/ ١٠أبريل ١٠٤٧م.

وبعد زيارته للخليل عاد ناصر خسرو إلى بيت المقدس، ومنها قصد الحجاز فغادرها فى منتصف ذى القعدة سنة ٤٣٧هـ/ أول مايو ١٠٤٧ م. وبعد أدائه لفريضة الحج عاد إلى بيت المقدس ثانية عن طريق الشام، فبلغها فى الخامس من المحرم سنة ٤٣٩هـ/ ٧ يوليو ١٠٣٧م، ثم غادر بيت المقدس إلى مصر بطريق البحر على أن يخرج منها بعد ذلك إلى مكة.

وبعد استعراضه لكتاب «سفر نامة»، ولبيان أهميته كمصدر من مصادر القدس الهامة يسجل الدكتور عطية أحمد القوصى النتائج التالية فى دراسته التى سبقت الإشارة إليها كما يلى:

أولا: كتاب «سفر نامة» يعد من أهم مصادر القدس فى فترة الحكم الإسلامى للمدينة فى العصر الوسيط، وبه وصف مستفيض للمدينة ولأهم معالمها، وخاصة معالمها الدينية المقدسة التى تؤكد عروبتها وقداستها فى الإسلام. والكتاب من تأليف شاهد عيان رحالة مسلم فارسى الأصل، كتبه أثناء رحلة قام بها لبلاد العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، لمدة سبع سنوات، خلال حكم خلفاء الفاطميين لمصر والشام، فى عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥- ١٠٩٤م). وفى عهد هذا الخليفة كانت مصر تتسيد الحكم على بلاد الشام والحجاز، وبلغت أقصى نفوذها فى صراعها مع الخلافة العباسية فى أمر فرض السيادة الروحية الدينية على العالم الإسلامى بالخطبة للخليفة الفاطمى لمدة عام من فوق منابر بغداد وغيرها من المنابر السنية التابعة للخليفة العباسى.

ثانيًا: فى هذا القرن ـ الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ـ برزت أهمية القدس كمركز دينى هام للأديان السماوية الثلاثة، وبسبب ذلك تعرضت بلاد الشام عموما والقدس خصوصا للعدوان الأوروبى الذى اتخذ له قناعا دينيا. وشن الأوروبيون على بلاد الشرق حروبهم التى عرفت بالحروب الصليبية، بعد اتهامهم المسلمين بإساءة معاملة الحجاج المسيحيين المتوجهين لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة بالقدس. وهو ادعاء نفاه ناصر خسرو فى كتابه، بل أكد على مدى التسامح الذى كان يعامل به المسيحيون وغيرهم من أرباب الديانات الأخرى عند زيارتهم للقدس عند قدومهم من بلاد المشرق أو بلاد الروم لزيارة النصارى لكنيسة القيامة، أو لبيت لحم، وزيارة اليهود لمعبدهم (الكنيس) هناك.

ثالثًا: لم يشر ناصر خسرو فى كتابه إلى أى تجمع يهودى بالقدس أو أى ملكية أراضى لليهود هناك، وعدم وجود أى مستوطنات أو چيتو يهودى بالقدس أثناء زيارته لها، لو وجد مثل ذلك لما تردد فى ذكره، ولكنه اقتصر عند حديثه عن سكان المدينة بالقول بأن عددهم يبلغ حوالى عشرين ألف رجل غير النساء والأطفال المسلمين، ولم يشر إلى أهل ملل أخرى غير ما أشار إليهم من الرهبان المجاورين للأماكن المقدسة، والحجاج المسيحيين واليهود الذين كان يقتصر

وجودهم المؤقت بالمدينة المقدسة على أداء فريضة الحج ثم العودة إلى بلادهم، يقول ناصر خسرو فى ذلك ما نصه: «كذلك يأتى لزيارة بيت المقدس ـ من ديار الروم ـ كثير من النصارى واليهود وذلك لزيارة الكنيسة والكنيس هناك».

ويبدو أن عدد اليهود الذين كانوا يقيمون فى القدس ـ وقت زيارة ناصر خسرو لها ـ كان قليلا، ولذلك لم يسترع نظر ناصر خسرو، ولم يشر إلى نشاط اليهود وممتلكاتهم بهذه المدينة المقدسة، مع أنه من الوارد أنه كانت بالقدس آنذاك جالية يهودية منذ أيام الفتح الإسلامى لهذه المدينة، وتسلم الخليفة عمر بن الخطاب لها سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧ م.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد سمح لليهود بالعودة إلى القدس بعد طردهم منها وتحريمهم الإقامة فيها منذ عام ٧٠ م على يد الإمبراطور الرومانى تيتوس الذى هدم هيكل اليهود بالقدس، وقام بقتل وطرد من بقى منهم بالقدس خصوصا وفلسطين عموما، وكان هذا الطرد لليهود من القدس قد تكرر سنة ١٣٥ م حين فشلت الثورة التى قاموا بها ضد الرومان فى عهد الإمبراطور هادريان فى الفترة ما بين سنوات ١٣٢ - ١٣٥ م، وهى الثورة التى عرفت باسم ثورة باركوكبا (ابن النجوم)، وكانت آخر ثوراتهم ضد الرومان بفلسطين، وقد قام القائد الرومانى يوليوس سيفروس ـ قائد هادريان آنذاك ـ بإخماد هذه الثورة وهدم معبد اليهود وأقام مكانه معبدا وتمثالا للإله جيوبيتر كابيتولينوس، كما قام بتغيير اسم مدينة القدس إلى إيليا كابيتولينا، وأصدر هادريان قرارا يحرم على اليهود دخول مدينة القدس والعيش فيها، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك.

وظلت القدس وسائر مدن فلسطين محرمة على اليهود حتى الفتح الإسلامى للشام فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب.

وعندما قدم الخليفة عمر لاستلام هذه المدينة المقدسة من زعماء المسيحيين فيها اشترطوا عليه شروطا يسلمونه المدينة بعدها، منها: شرط منع اليهود من دخولها والاستيطان فيها، لكن الخليفة المسلم قبل كل شروطهم ما عدا هذا الشرط،

معتذرا بأن القرآن قد حدد لأهل الكتاب ما لهم وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بذلك، وبذلك أصبح لليهود الحق فى العودة والعيش فى المدينة طوال عهد الراشدين وأوائل عهد الأمويين، لكن أعدادهم ازدادت فيها بشكل معقول فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان، وحين أصبحت بلاد الشام فى يد الفاطميين ـ بما فيها القدس ـ ازداد بالمدينة تواجد اليهود لتسامح الفاطميين عموما مع أهل الذمة مسيحيين ويهود.

وعلى هذا نرى أنه كانت هناك جالية يهودية فى القدس، قليل شأنها وخطرها ـ عند زيارة ناصر خسرو لهذه المدينة المقدسة ـ الأمر الذى لم يلفت نظره ولم يستحق منه الكتابة عنه.

رابعًا: تحدث ناصر خسرو عن قداسة بيت المقدس لاحتوائها الأماكن المقدسة من المسجد الأقصى وقبة الصخرة ومسجد الجمعة، وأشار إلى فخامة هذه الأبنية والأموال الطائلة التى صرفت على تشييدها أيام الأمويين.

وليس من الصعب علينا أن نتفهم الظروف التاريخية التى صاحبت تشييد هذه الأبنية الدينية الفخمة، فقد اعتاد جيل المسلمين الأوائل على بساطة مسجد النبى ﷺ الذى بناه فى المدينة، وكان قانعا بذلك البنيان الخشبى البسيط للحرم الشريف بالقدس، الذى كان مكانا للعبادة فى عهد حكم الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان، والذى وصفه الرحالة الفرنسى أركولف حوالى سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م. لكن فخامة وأبهة كنائس القدس واللد ودمشق الزائد عن الحد تحت الحكم البيزنطى، كذلك كنائس بعض مدن الشام الفخمة لم تخفق فى أن تترك تأثيرها العميق على جيل المسلمين الثانى الذى نما وترعرع فى البلاد الجديدة المفتوحة، وتشرب بالشعور الجمالى والذوق الزائد الصفاء، ويخبرنا المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» عند حديثه عن القدس كيف أن عمه قد تلمس العذر للخليفتين الأمويين عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك فى صرفهما كثيرا من أموال المسلمين على البناء، فلقد قصدا بذلك منع الفتنة التى قد تثيرها أماكن عبادة الديانات الأخرى الكثيرة الجميلة.

وبرغم أن الشكل المستدير الذى أخذته قبة الصخرة غريب عن العمارة الإسلامية فقد قدر له أن يضارع كثيرا من القباب المسيحية، وقد أظهرت النقوش التى كانت تزين داخلها ـ بوضوح ـ روح مناظرة المسيحية، بينما هى تؤكد فى ذات الوقت حكم القرآن من أن المسيح نبى حق، وقد تكررت عبارة «لا شريك له» خمس مرات فى هذه النقوش، كذلك سطرت الآيات ٣٤- ٣٧ من سورة مريم داخلها ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾ [مريم: ٣٤-٣٧] وهى الآيات التى تنكر بشدة بنوة عيسى إلى الله. كذلك كتب بعناية فائقة وبخط كوفى جميل عبارة: «اللهم صل على رسولك وعبدك عيسى ابن مريم»، كل ذلك يظهر أن مناظرة المسيحية والرغبة فى إظهار روح رسالة الإسلام كانتا واردتين أثناء تشييد قبة الصخرة الشهيرة، وهكذا أظهر ناصر خسرو فى كتابه أن تشييد قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى قد جاءا تلبية لدواعى الاحتياجات الحضارية لجيل المسلمين الثانى، وأن المراد به ـ كما هو ثابت فى الكتابات المحفورة عليهما ـ أن تكون أداة لمناظرة المسيحية، كما أن تكون فى نفس الوقت أيضا دعوة لاعتناق الإسلام.

خامسًا: عن قداسة بيت المقدس، أورد ناصر خسرو الاعتقاد الشائع فى الأديان الكتابية الثلاثة عن وقوع البعث والقيامة والحشر بالقدس فى سهل يعرف بسهل «الساهرة» ومجىء خلق كثيرين من أطراف العالم للإقامة به انتظارا لهذا اليوم. وهذا يؤكد ما أورده «مظهر بن طاهر المقدسى» فى كتابه «البدء والتاريخ»، الذى ألفه سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م، بما نصه: «يقول المسلمون إن الموتى سوف يبعثون يوم القيامة من بيت المقدس، وإن هنالك حديثا فى هذا الخصوص منسوبًا إلى الرسول ﷺ، وإن كثيرا من اليهود يشاركون فى هذا الاعتقاد. ولكنى سمعت من يقول بأن هذا الحديث حديث موضوع، وضعه أهل الشام، وأن الله سوف يبعث الموتى أنى شاءت إرادته تعالى». وبنفس الطريقة يصور ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية القصص المتعلق بقيام البعث فى بيت المقدس على أنه صيغ

موضوعه لجذب الزائرين إلى المدينة المقدسة. وقد خصص العالم الشهير ابن تيمية (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) رسالة خاصة لدحض مثل تلك الادعاءات.

وتحدث ناصر خسرو عن وجود قرافة عظيمة، ومقابر كثيرة للصالحين بالقدس يصلى الناس بها ويدعون ويستجاب هنالك لدعائهم وتقضى حوائجهم.

سادسًا: عن قداسة بيت المقدس أيضا، أشار ناصر خسرو إلى أن المسلمين من أهل الشام وغيرهم الذين لم يستطيعوا أداء فريضة الحج فى مكة والوقوف بعرفات وذبح أضحياتهم هناك، كانوا يذهبون فى شهر ذى الحجة إلى القدس، ويقومون بالوقوف هناك. ويقول ناصر خسرو فى ذلك ما نصه: «ويذهب إلى القدس فى موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه إلى الموقف ويضحى العيد كما هى العادة، ويحضر هناك لتأدية السُنة ـ فى بعض السنين ـ أكثر من عشرين ألف شخص فى أوائل ذى الحجة، ومعهم أبناؤهم».

سابعًا: تحدث ناصر خسرو عن قداسة بيت المقدس عند المسلمين عن المتصوفين الذين جاوروا فى بيت المقدس، وعن المتصوفين الأوائل الذين حرصوا على زيارة بيت المقدس من أمثال: سفيان الثورى، وإبراهيم بن أدهم، وأبى يزيد البسطامى، وبشر الحافى، وصريع السقطى، وغيرهم، كذلك عن تلامذة المتصوفة الأوائل الذين حذوا حذو أساتذتهم، ويأتى فى مقدمتهم الإمام الغزالى، الذى تحدث عن عزلته عند قبة الصخرة ببيت المقدس سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥ م فى كتابه "المنقذ"، وعُدت هذه العزلة حدثا تاريخيا هاما. كذلك جاور الكازرونى (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) هناك، وكان يعتقد أن العيش الحلال، الخالى من أى شبهة دينية لا يوجد إلا هناك. كذلك جاور هناك سعيد بن أبى الخير، وقص علينا أنه التقى بالخضر النبى فى بيت المقدس. كذلك حج إلى هناك أبو النجيب السهروردى سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، كذلك فعل الشعرانى ـ أعظم المتصوفين المتأخرين (ت ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥ م).

ثامنًا: أصبح الكلام عن قدسية أرض الشام عمومًا وبيت المقدس خصوصًا،

وعن مزايا هذه البلاد أو العيش فيها فى المصادر الإسلامية ـ مثل كتاب سفر نامة ـ كلامًا مجيبًا وشائعًا بين المسلمين، وذلك حين هدد أعداء الإسلام هذه المنطقة، مثلما فعل البيزنطيون فى صدر الإسلام، والصليبيون فى القرون المتأخرة.

وفيما يلى نص ما جاء فى كتاب «سفر نامة» عن رحلة ناصر خسرو إلى القدس:

النص الكامل لوقائع رحلة ناصر خسرو إلى القدس

فى الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ / ١٦ مارس ١٠٤٧ بلغنا بيت المقدس. وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا لم نقر فى مكان قط، ولا وجدنا راحة كاملة، وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس «القدس» ويذهب إلى القدس فى موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه إلى الموقف ويضحى ضحية العيد كما هى العادة، ويحضر هناك لتأدية السُّنة ـ فى بعض السنين ـ أكثر من عشرين ألف شخص فى أوائل ذى الحجة، ومعهم أبناؤهم.

كذلك يأتى لزيارة بيت المقدس ـ من ديار الروم ـ كثير من النصارى واليهود، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيس هناك. «وهناك كنيسة عظيمة سيأتى وصفها فى مكانه»، وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من زيت الزيتون، يحفظونها فى الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى أطراف العالم ويقال: إنه لا يحدث قحط فى بلاد الشام.

وسمعت من ثقات أن وليًا رأى النبى ﷺ فى المنام فقال له: «ساعدنا فى معاشنا يا رسول الله»، فأجابه النبى ﷺ: «على خبز الشام وزيته».

والآن أصف مدينة بيت المقدس.

وصف بيت المقدس:

هى مدينة مشيدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار، ورساتيقها ذات عيون، وأما المدينة فليس بها عين، فإنها على رأس صخر، وهى مدينة كبيرة كان بها ــ فى ذلك الوقت ــ عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة، بحيث تُغْسَل الأرض كلها وتُنظّف حين تنزل الأمطار.

وفى المدينة صناع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة، والجامع شرقى المدينة، وسوره هو سورها الشرقى، وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد «اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم يا رب العالمين».

وعلى حافة هذا السهل قرافة عظيمة، ومقابر كثير من الصالحين، يصلى بها الناس ويرفعون بالدعاء أيديهم فيقضى الله حاجاتهم، اللهم تقبل حاجاتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين، وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين.

ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها، حتى أن الناظر إليها ليسأل نفسه كيف رفعت فى مكانها؟ ويقول العامة: إنها بيت فرعون، واسم هذا الوادى «وادى جهنم» وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل: إن عمر رضى الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته فى سهل الساهرة هذا، فلما رأى الوادى قال: هذا وادى جهنم. ويقول العوام: إن من يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم، فإن الصدى يرتفع من هناك، وقد ذهبت فلم أسمع شيئا، وحين يسير السائر من المدينة ــ جنوبا ــ مسافة نصف فرسخ، وينزل المنحدر، يجد عين ماء تنبع من الصخر، تسمى عين سلوان.

وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة، ويمر ماء هذه العين بقرية شَيَّدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين، ويقال: إن من يستحم من ماء هذه العين

يُشفى مما ألمَّ به من الأوصاب والأمراض المزمنة، وقد وقفوا عليها مالا كثيرا. وفى بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف.

وهذا المستشفى ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادى جهنم، وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادى يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير الذى لا يفصله عن بعضه ملاط أو جص، والحوائط ــ داخل المسجد ــ ذات ارتفاع مستو.

وقد بُنى المسجد فى هذا المكان لوجود «الصخرة» به، وهى الصخرة التى أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يتخذها قبلة، فلما قضى هذا الأمر، واتخذها موسى قبلة له، لم يعمر كثيرا، بل عجلت به المنية، حتى إذا كانت أيام سليمان عليه السلام، وكانت الصخرة قبلة، بنى مسجداً حولها بحيث أصبحت فى وسطه وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى ﷺ، فكان المصلون يولون وجوههم شطرها، إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولوا وجوههم شطر الكعبة وسيأتى وصف ذلك فى مكانه.

وقد أردت أن أقيس هذا المسجد، ولكنى آثرت أن أتقن معرفة هيئته ووضعه أولا ثم أقيسه، فلبثت فيه زمنا أمعن النظر، فرأيت عند الجانب الشمالى ــ بجوار قبة يعقوب عليه السلام ــ طاقا مكتوبا على حجر منه أن طول هذا المسجد أربع وخمسون وسبعمائة ذراع، وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع، وذلك «بذراع الملك»، المسمى فى خراسان «كزشايكان» وهو أقل قليلا من ذراع ونصف الذراع.

وأرض المسجد مغطاة بحجارة موثوقة إلى بعضها بالرصاص، والمسجد شرقى المدينة والسوق، فإذا دخل السائر من السوق فإنه يتجه شرقا، فيرى رواقا عظيما جميلا ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون، وللرواق جناحان وواجهتاهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة بالجص على الصورة التى يريدونها وهى من الدقة بحيث تبهر النظر.

ويرى على هذا الرواق كتابة منقوشة بالمينا، وقد كتب هناك لقب سلطان مصر، فحين تقع الشمس على هذه النقوش يكون لها من الشعاع ما يحير الألباب، وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول، وله بابان مزخرفان وواجهتاهما من النحاس الدمشقى الذى يلمع حتى لتظن أنهما طليا بالذهب، وقد طُعّما بالذهب وحليا بالنقوش الكثيرة، وطول كل منهما خمس عشرة ذراعا وعرضه ثمان، ويسميان باب داود عليه السلام، وحين يجتاز السائر هذا الباب، يجد على اليمين رواقين كبيرين فى كل منهما تسعة وعشرون عمودا من الرخام، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص.

وعلى تيجان الأعمدة طيقان حجرية، وهى مقامة فوق بعضها بغير ملاط وجص، ولا يزيد عدد حجارة الطاق منها على أربع أو خمس قطع، وهذان الرواقان ممتدان إلى المقصورة، ثم يجد على اليسار ــ وهو ناحية الشمال ــ رواقا طويلا به أربعة وستون طاقا كلها على تيجان أعمدة من رخام، وعلى هذا الحائط نفسه باب آخر اسمه «باب السقر»؟

وطول المسجد من الشمال إلى الجنوب، وهو ساحة مربعة ــ إذا اقتطعت المقصورة منه ــ والقبلة فى الجنوب، وعلى الجانب الشمالى بابان آخران متجاوران عرض كل منهما سبع أذرع، وارتفاعه اثنتا عشرة ذراعا، ويسميان «باب الأسباط» فإذا اجتازه السائر، وذهب مع عرض المسجد ــ الذى هو جهة المشرق ــ يجد رواقا عظيما كبيرا به ثلاثة أبواب متجاورة، فى حجم «باب الأسباط»، وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس ــ قلّ ما هو أجمل منها ــ تسمى «باب الأبواب» لأن للمواضع الأخرى بابين وله ثلاثة.

وبين هذين الرواقين الواقعين على الجانب الشمالى، فى الرواق ذى الطيقان المحمولة على أعمدة الرخام، قبة رفعت على دعائم عالية، وزينت بالقناديل والمسارج، تسمى قبة يعقوب عليه السلام؛ لأنه كان يصلى هناك «وفى عرض المسجد رواق فى حائطه باب خارجه صومعتان للصوفية، وهناك مصليات ومحاريب جميلة يقيم بها جماعة منهم، ويصلون ولا يذهبون للجامع إلا يوم الجمعة؛ لأنهم لا يسمعون التكبير حيث يقيمون.

وعند الركن الشمالى للمسجد رواق جميل، وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها: «هذا محراب زكريا النبى عليه السلام». ويقال: إنه كان يصلى هناك دائما، وعند الحائط الشرقى ــ وسط الجامع ــ رواق عظيم الزخرف من الحجر المصقول، حتى لتظن أنه نحت من قطعة واحدة، ارتفاعه خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون، عليه نقوش ونقر، وله بابان جميلان لا يفصلهما أكثر من قدم واحدة، وعليهما زخارف كثيرة من الحديد والنحاس الدمشقى وقد دق عليهما الحلق والمسامير، ويقال: إن سليمان بن داود عليه السلام بنى هذا الرواق لأبيه.

وحين يدخل السائر هذا الرواق متجها ناحية الشرق، فالأيمن من هذين البابين هو(باب الرحمة) والأيسر (باب التوبة) ويقال: إن هذا الباب هو الذى قبل الله تعالى عنده توبة داود عليه السلام. وعلى هذا الرواق مسجد جميل كان فى وقت ما دهليزا، فصيروه جامعا وزينوه بأنواع السجاد، وله خدم مخصوصون، ويذهب إليه كثير من الناس، ويصلون فيه ويدعون الله تبارك وتعالى ، فإنه فى هذا المكان قُبلَ توبة داود وكل إنسان هناك يأمل فى التوبة والرجوع عن المعاصى.

ويقال:إن داود عليه السلام لم يكد يطأ عتبة هذا المسجد، حتى بشره الوحى بأن الله سبحانه وتعالى قد قَبلَ توبته، فاتخذ هذا المكان مقاما وانصرف إلى العبادة، وقد صليت ــ أنا ناصر ــ فى هذا المقام، ودعوت الله تعالى أن يوفقنى لطاعته، وأن يغفر ذنبى. الله سبحانه وتعالى يهدى عباده جميعا لما يرضاه، ويغفر لهم ذنوبهم بحق محمد وآله الطاهرين.

وحين يمضى السائر بحذاء الجدار الشرقى إلى أن يبلغ الزاوية الجنوبية، عند القبلة التى تقع على الضلع الجنوبى، يجد أمام الحائط الشمالى مسجدا بهيئة السرداب، ينزل إليه بدرجات كثيرة مساحته عشرون ذراعا فى خمس عشرة، وسقفه من الحجر مرفوع على أعمدة الرخام. وبهذا السرداب مهد عيسى عليه السلام وهو من الحجر، كبير بحيث يصلى عليه الناس، وقد صليت هناك. وقد أحكم وضعه فى الأرض حتى لا يتحرك، وهو المهد الذى أمضى فيه عيسى طفولته وكلم الناس منه، وهو فى المسجد مكان المحراب.

وفى الجانب الشرقى من هذا المسجد محراب مريم ــ عليها السلام. وبه محراب آخر لزكريا عليه السلام. وعلى هذين المحرابين آيات القرآن التى نزلت فى حق زكريا ومريم .

ويقال: إن عيسى عليه السلام ولد بهذا المسجد. وعلى حجر من عُمُده نقش إصبعين كأن شخصا أمسكه. ويقال إن مريم أمسكته بإصبعيها وهى تلد.

ويعرف هذا المسجد (بمهد عيسى) عليه السلام، وبه قناديل كثيرة من النحاس والفضة، توقد كل مساء.

حين يخرج السائر من هذا المسجد ــ متبعا الحائط الشرقى ــ يجد عندما يبلغ زاوية المسجد الكبير مسجدا آخر عظيما جدا، أكبر مرتين من مسجد (مهد عيسى) يسمى (المسجد الأقصى) وهو الذى أسرى الله عز وجل بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ــ ليلة المعراج ــ من مكة إليه، ومنه صعد إلى السماء، كما جاء فى القرآن:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ [الإسراء:١].

وقد بنوا به أبنية غاية فى الزخرف، وفرش بالسجاد الفاخر، ويقوم عليه خدم مخصوصون يعملون به دواما .

وحين يعود السائر إلى الحائط الجنوبى ــ على مائتى ذراع من تلك الزاوية ــ يجد سقفا، وهناك ساحة المسجد، وأما الجزء المسقوف من المسجد الكبير ــ والذى به المقصورة ــ فيقع عند الحائطين الجنوبى والغربى. وطول هذا الجزء عشرون وأربعمائة ذراع وعرضه خمسون ومائة ذراع، وبه ثمانون ومائتا عمود من الرخام، على تيجانها طيقان من الحجارة .

وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص فى منتهى الإحكام. وبين كل عمودين ست أذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقاق الرصاص.

والمقصورة فى وسط الحائط الجنوبى، وهى كبيرة جدا تتسع لستة عشر عمودا، وعليها قبة عظيمة جدا منقوشة بالمينا على نسق ما وصفت، وهى مفروشة بالحصير المغربى، وبها قناديل ومسارج معلقة بالسلاسل، ومتباعدة بعضها عن بعض، وبها محراب كبير منقوش بالمينا، وعلى جانبيه عمودان من الرخام لونهما كالعقيق الأحمر، وإزار المقصورة كله من الرخام الملون.

وعلى يمينه محراب معاوية، وعلى يساره محراب عمر، وسقف هذا المسجد مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف، وعلى باب المقصورة وحائطها المطلين على الساحة خمسة عشر رواقا، عليها أبواب مزخرفة ارتفاع كل منها عشر أذرع وعرضه ست. عشرة من هذه الأبواب تفتح على الجدار الذى طوله عشرون وأربعمائة ذراع، وخمسة منها على الجدار الذى طوله خمسون ومائة ذراع.

وقد زين باب منها غاية الزينة، وهو من الحسن بحيث تظن أنه من ذهب، وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة المأمون، ويقال: إنه هو الذى أرسله من بغداد. وحين تفتح الأبواب كلها ينير المسجد حتى لتظن أنه ساحة مكشوفة، أما حين تعصف الريح وتمطر السماء وتغلق الأبواب، فإن النور ينبعث للمسجد من الكوات، وعلى الجوانب الأربعة من الحرم المسقوف صناديق من مدن الشام والعراق، يجلس بجانبها المجاورون، كما هو الحال فى المسجد الحرام بمكة ــ شرفها الله تعالى.

وخارج هذا الحرم ــ عند الحائط الكبير الذى مرَّ ذكره ــ رواق به اثنان وأربعون طاقا، وكل أعمدته من الرخام الملون، وهذا الرواق متصل بالرواق المغربى.

وتحت الأرض فى الحرم المسقوف حوض عُمل بحيث يكون فى مستوى الأرض حين يغطى، وقد بنى لتجمع فيه مياه المطر، وعلى الحائط الجنوبى باب يؤدى إلى ميضاة، يذهب إليها من يحتاج إلى الوضوء فيجدده؛ وذلك لأنه لا يلحق الصلاة إذا هو خرج من المسجد ليتوضأ، إذ أن كبر المسجد يفوت عليه الصلاة، إذا اجتازه، وكل الأسقف ملبسة بالرصاص.

وقد حفرت فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة، فإن المسجد مشيد كله على صخرة، يتجمع فيها ماء المطر، فلا تضيع منه قطرة، وينتفع به الناس.

وهناك ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء إلى أحواض حجرية تحتها، وقد ثقبت هذه الأحواض ليخرج منها الماء ويصب فى الصهاريج، بواسطة قنوات بينها، غير ملوث أو عفن، وقد رأيت على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجا كبيرا تنحدر إليه المياه من الجبل وتتجمع فيه، وقد أوصلوه بقناة إلى المسجد، حيث يوجد أكبر مقدار من مياه المدينة.

وفى المنازل كلها أحواض لجمع ماء المطر، إذ لا يوجد غيره هناك، ويجمع كل إنسان ما على سطح بيته من مياه، فإن ماء المطر هو الذى يستعمل فى الحمامات وغيرها.

والأحواض التى بالمسجد لا تحتاج إلى عمارة أبدا؛ لأنها من الحجر الصلب، فإذا حدث بها شق أو ثقب أحكم إصلاحه حتى لا تتخرب، ويقال: إن سليمان عليه السلام هو الذى عمل هذه الأحواض، وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التنور، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شىء، وماء هذه المدينة أعذب وأنقى من أى ماء آخر. والميازيب تستمر فى قطر المياه يومين أو ثلاثة ولو كان المطر قليلا، إلى أن يصفو الجو، وتزول آثاره السيئة، وحينئذ يبدأ المطر!

قلت: إن مدينة بيت المقدس تقع على قمة جبل، وإن أرضها غير مستوية، أما المسجد فأرضه مستوية، فخارج المسجد، عندما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه، إذ يكون أساسه فى أرض واطئة، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار.

وفى الجهات الواطئة من أحياء المدينة فتحوا فى المسجد أبوابا ــ كأنها ثقب ــ تؤدى لساحته، ومن هذه الأبواب باب يسمى «باب النبى» عليه الصلاة والسلام، وهو بجانب القبلة، أى فى الجنوب، وقد عمل بحيث يكون عرضه عشر أذرع،

وأما ارتفاعه فيتفاوت حسب المكان، فهو فى مكان خمس أذرع، أى علو سقف هذا الممر، وفى مكان آخر عشرون، والجزء المسقوف من المسجد الأقصى مشيد فوق هذا الممر، وهو محكم بحيث يتحمل أن يقام فوقه بناء بهذه العظمة من غير أن يؤثر فيه.قط.

وقد استخدمت فى بنائه حجارة لا يصدق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها، ويقال: إن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذى بناه، وقد دخل منه نبينا ﷺ إلى المسجد ليلة المعراج، وهذا الباب على جانب طريق مكة.

وعلى الحائط ــ بقرب هذا الباب ــ نقش لمجن كبير، يقال: إن حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ كان جالسا هناك وعلى كتفه المجن وظهره مسند إلى الحائط، وأن هذا نقش مجنه.

وعند بوابة المسجد ــ حيث هذا الممر الذى عليه باب ذو مصراعين ــ يبلغ ارتفاع الجدار من الخارج ما يقرب من خمسين ذراعا، وقد قصد بهذا الباب أن يدخل منه سكان المحلة المجاورة لهذا الضلع من المسجد، فلا يلجأون إلى الذهاب لمحلة أخرى حين يريدون دخوله، وعلى الحائط الذى يقع يمين الباب حجر ارتفاعه خمس عشرة ذراعا، وعرضه أربع أذرع، وليس فى المسجد حجر أكبر منه، وفى الحائط، على ارتفاع ثلاثين أو أربعين ذراعا من الأرض ــ كثير من الحجارة التى يبلغ حجمها أربع أذرع فى خمس.

وفى عرض المسجد باب شرقى، يسمى «باب العين» إذا خرجوا منه نزلوا منحدرا فيه «عين سلوان».

وهناك أيضا بابٌ تحت الأرض يسمى «الحطة» يقال بأنه هو الباب الذى أمر الله عز وجل بنى إسرائيل أن يدخلوا منه إلى المسجد، فى قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ . [البقرة:٥٨]

وهناك باب آخر يسمونه «باب السكينة»، فى دهليزه مسجد به محاريب كثيرة، باب أولها مغلق حتى لا يلجه أحد. ويقال: إن هناك تابوت «السكينة»

الذى ذكره الله تبارك وتعالى فى القرآن، والذى حمله الملائكة، وأبواب بيت المقدس ــ ما تحت الأرض وما فوقها ــ تسعة أبواب، كما ذكرت.

وصف الدكة التى بوسط ساحة المسجد والصخرة التى كانت قبلة الإسلام:

أقيمت هذه الدكة فى وسط المساحة؛ لأنه لم يتيسر نقل الصخرة إلى الجزء المسقوف من المسجد لعلوها، وهى تظل مساحة من الأرض مقدارها ثلاثون وثلاثمائة ذراع فى ثلاثمائة، وارتفاعها اثنتا عشرة ذراعا، وصحنها مستو، ومزخرف بالرخام الملبس بوصلات الرصاص، وعلى جوانبها الأربعة ألواح الرخام ــ كما يعمل فى المقابر ــ وهى مبنية بحيث لا يستطيع أحد الصعود عليها من غير المراقى المخصصة لهذا الأمر، ويرى من يصعد عليها سقف الجامع، وقد حفر فى أرضها ــ فى الوسط ــ حوض يصب فيه مياه المطر بواسطة قنوات أعدت لذلك، وماء هذا الحوض أنقى وأعذب من كل ماء فى الجامع، وعلى هذه الدكة أربع قباب، أكبرها قبة الصخرة التى كانت القبلة.

وصف قبة الصخرة:

بنى المسجد بحيث تكون الدكة فى وسط الساحة، وقبة الصخرة فى وسط الدكة والصخرة وسط القبة، وقبة الصخرة بيت مثمن منظم، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعا، وله أربعة أبواب، على الجهات الأربع الأصلية، باب شرقى وآخر غربى وثالث شمالى ورابع جنوبى، وبين كل بابين ضلع، وجميع الحوائط من الحجر المنحوت، وارتفاعها عشرون ذراعا.

ومحيط الصخرة مائة ذراع، وهى غير منتظمة الشكل، لا هى مدورة ولا مربعة، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل، وقد بنوا على جوانب الصخرة الأربعة أربع دعائم مربعة، بارتفاع حائط الدكة المذكورة، وبين كل دعامتين ــ على الجوانب الأربعة ــ عمودان أسطوانيان من الرخام، بنفس الارتفاع، وعلى

قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثنى عشر بنوا القبة التى تحتها الصخرة، والتى يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعا.

وبين حائط هذا البناء والدعائم والأعمدة (أسمى المربعة المبنية «ستون» دعامة والمنحوتة المستديرة التى من حجر واحد «أسطوانة» عمودا) ثمانى دعائم أخرى مبنية من الحجارة المنحوتة، وبين كل اثنتين منهما ثلاثة أعمدة من الرخام الملون على أبعاد متساوية، بحيث يكون فى الصف الأول عمودان بين كل دعامتين، ويكون هناك ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين.

وعلى تاج كل دعامة أربعة عقود، على كل عقد طاق، وعلى كل عمود عقدان فوق كل منهما طاق، وهكذا يكون على العمود متكأ لطاقين، وعلى الدعامة متكأ لأربعة، فكانت هذه القبة العظيمة فى ذلك الوقت مرتكزة على هذه الدعامات الاثنتى عشرة المحيطة بالصخرة، فتراها على بعد فرسخ كأنها قمة جبل؛ لأنها من أساسها إلى قمتها ثلاثون ذراعا، وهى تستند إلى أعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون ذراعا، وقبة الصخرة مشيدة على بيت ارتفاعه اثنتى عشرة ذراعا، إذن، فمن ساحة المسجد إلى رأس القبة اثنتان وستون ذراعا.

وأسقف وقباب هذه الدكة مكسوة بالنجارة، وكذلك الدعائم والعمد والحوائط، وذلك بدقة قل نظيرها، والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة رجل، وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لا تصل يد إليها.

والصخرة حجر أزرق لونه، لم يطأها أحد برجله أبدا، وفى ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض، كأن إنسانا سار عليها فبدت آثار أصابع قدميه فيها، كما تبدو على الطين الطرى، وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام، وسمعت أن إبراهيم عليه السلام كان هناك، وكان إسماعيل طفلا فمشى عليها وهذه هى آثار أقدامه.

ويقيم فى بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره، وفى وسطه قنديل من الفضة، معلق بسلسلة فضية فوق الصخرة، وهناك قناديل كثيرة من فضة، كتب عليها وزنها، أمر بصنعها سلطان مصر، ...

ورأيت هناك أيضا شمعة كبيرة جدا طولها سبع أذرع وقطرها ثلاثة أشبار، لونها كالكافور الزباحى وشمعها مخلوط بالعنبر، ويقال: إن سلطان مصر يرسل هناك كل سنة كثيرا من الشمع، منه هذه الشمعة الكبيرة، ويكتب عليها اسمه بالذهب.

وهذا المسجد هو ثالث بيوت الله ــ سبحانه وتعالى ــ والمعروف عند العلماء أن كل صلاة فى بيت المقدس تساوى خمسة وعشرين ألف صلاة، وكل صلاة فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام تعد بخمسين ألف صلاة، وأن صلاة مكة المعظمة ــ شرفها الله تعالى ــ تساوى مائة ألف صلاة، وفق الله عز وجل عباده جميعا لهذا الثواب.

وقد قلت: إن أسقف وظهور القباب ملبسة بالرصاص، وعلى جوانب الدكة الأربعة أبواب كبيرة ذات مصراعين من خشب الساج، وهى مقفلة دائما، وبعد قبة الصخرة قبة تسمى «قبة السلسلة»، وهى السلسلة التى علقها داود عليه السلام، والتى لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق، أما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها، وهذا المعنى المشهور عند العلماء.

وهذه القبة محمولة على رأس ثمانية أعمدة من الرخام، وست دعائم من الحجر، وهى مفتوحة من جميع الجوانب عدا جانب القبلة، فهو مسدود حتى نهايته، وقد نصب عليه محراب جميل.

وعلى الدكة نفسها قبة أخرى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام، وهى مغلقة من ناحية القبلة أيضا، حيث بنى محراب جميل، وتسمى هذه القبة «قبة جبريل» عليه السلام، وليس فيها فرش، بل إن أرضها من حجر مستو، ويقال: إن هنا أعد «البراق» ليركبه النبى ﷺ ليلة المعراج.

وبعد قبر «قبة جبريل» تأتى «قبة الرسول» عليه الصلاة والسلام، وبينهما عشرون ذراعا، وهى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام أيضا، ويقال: إن الرسول ﷺ، صلى ليلة المعراج فى قبة الصخرة أولا، ثم وضع يده على الصخرة، فلما

خرج وقفت لجلالته، فوضع الرسول عليه الصلاة والسلام يده عليها لتعود إلى مكانها وتستقر، وهى بعد نصف معلقة، وقد ذهب الرسول ﷺ من هناك إلى القبة التى تنتسب إليه وركب البراق، وهذا سبب تعظيمها.

وتحت الصخرة غار كبير، يضاء دائما بالشمع، يقال: إنه حين قامت الصخرة خلا ما تحتها، فلما استقرت بقى هذا الجزء كما كان.

صف المراقى المؤدية إلى الدكة التى بساحة الجامع

يُسار إلى هذه الدكة من ستة مواضع لكل منها اسم، فبجانب القبلة طريقان، يصعد فيهما على درجات، فإذا وقفت فى وسط الدكة وجدت أحدهما على اليمين، والثانى على اليسار، والذى على اليمين يسمى مقام النبى ﷺ، والذى على اليسار يسمى مقام الغورى، وسمى الأول مقام النبى؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام صعد على درجاته إلى الدكة ليلة المعراج، ودخل إلى قبة الصخرة.

ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب، وعرض درجاته عشرون ذراعا، وهى من الحجر المنحوت المنتظم، وكل درجة قطعة أو قطعتان من الحجر المربع، وهى معدة بحيث يستطيع الزائر الصعود عليها راكبا، وعلى قمة هذه الدرجات أربعة أعمدة من الرخام الأخضر الذى يشبه الزمرد، لولا أن به نقطا كثيرة من كل لون، ويبلغ ارتفاع كل عمود منها عشر أذرع، وقطره بقدر ما يحتضن رجلان.

وعلى رأس هذه الأعمدة الأربعة ثلاثة طيقان، أحدهما مقابل للباب، والآخران على جانبيه، وسطح الطيقان أفقى، من فوقه شرفات بحيث يبدو مربعا، والعمد والطيقان منقوشة كلها بالذهب والمينا، ليس أجمل منها، ودرابزين الدكة كله من الرخام الأخضر المنقط، حتى لتقول: إن عليه روضة ورد ناضر.

وقد أعد مقام الغورى بحيث تكون ثلاثة سلالم على موضع واحد، أحدهما محاذ للدكة والآخران على جانبيها، حتى يستطاع الصعود من ثلاثة أماكن، ومن فوق هذه السلالم الثلاثة أعمدة عليها طيقان وشرفة، والدرجات ــ بالوصف

الذى ذكرت ــ من الحجر المنحوت، كل درجة قطعتان أو ثلاث من الحجر المستطيل، وكتب بخط جميل بالذهب على ظهر الطاق: أمر به الأمير ليث الدولة نوشتكين الغورى.

ويقال: إنه كان تابعا لسلطان مصر، وهو الذى أنشأ هذه الطرق والمراقى.

وعلى الجانب الغربى للدكة سُلّمان فى ناحيتين منها، وهناك طريق عظيم مشابه لما ذكرت، وكذلك فى الجانب الشرقى طريق عظيم مماثل، عليه أعمدة فوقها طيقان وشرفة يسمى المقام الشرقى.

وعلى الجانب الشمالى طريق أكثر عُلُوّا وأكبر منها كلها، به أعمدة فوقها طيقان، يسمى المقام الشامى، وأظن أنهم صرفوا على هذه الطرق الستة مائة ألف دينار.

وفى الجانب الشمالى لساحة المسجد ــ لأعلى الدكة ــ بناء كأنه مسجد صغير، يشبه الحظيرة، وهو من الحجر المنحوت، يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجل، ويسمى «محراب داود»، وبالقرب منه حجر غير مستو يبلغ قامة رجل، وقمته تتيح وضع حصيرة صلاة صغيرة عليها. ويقال: إنه كرسى سليمان \ الذى كان يجلس عليه أثناء بناء المسجد.

هذا ما رأيت فى جامع بيت المقدس، وقد صورته وضممته إلى مذكراتى، ومن النوادر التى رأيتها فى بيت المقدس شجرة الحور.

بعد الفراغ من زيارة بيت المقدس عزمت على زيارة مشهد إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، فى يوم الأربعاء غرة ذى القعدة سنة ٤٣٨ هـ / ٢٠ أبريل سنة ١٠٤٧م، والمسافة بينهما ستة فراسخ، عن طريق جنوبى به قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر برى لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق.

وعلى فرسخين من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة، تسمى «الفراديس»؛ لجمال موقعها، وعلى فرسخ واحد من بيت المقدس مكان للنصارى يعظمونه كثيرا، يقيم بجانبه مجاورون، ويحج إليه كثيرون، اسمه «بيت

اللحم»، وهناك يقدم النصارى القرابين، ويقصده الحجاج من بلاد الروم، وقد بلغته مساء اليوم الذى قمت فيه من بيت المقدس.....

ثم رجعت إلى بيت المقدس، ومن هناك سرت ماشيا مع جماعة تقصد الحجاز، وكان دليلنا رجلا اسمه أبو بكر الهمدانى، وهو رجل جَلْدٌ يقدر على المشى، وجهه جميل، غادرت بيت المقدس فى منتصف ذى القعدة سنة ٤٣٧هـ / أول مايو ١٠٤٧م، وبعد ثلاثة أيام بلغت جهة تسمى «أعز القرى»، بها ماء جار وأشجار، ثم غادرتها إلى منزل آخر يسمى «وادى القرى»، ومن بعده نزلنا مكانا ثالثا، ثم بلغنا مكة بعد عشرة أيام، لم تحضر لمكة قافلة من أى بلد فى هذه السنة، ولم يكن الطعام متوفرا، وقد نزلت فى سكة العطارين أمام باب النبى ﷺ. وفى يوم الاثنين طلعت عرفات، وكان الناس مملوئين رعبا من العرب، ولما عدت من عرفات لبثت بمكة يومين، ثم رجعت إلى بيت المقدس عن طريق الشام.

بلغنا بيت المقدس فى الخامس من المحرم سنة ٤٣٩ هـ / ٧ يوليو ١٠٤٧م، ولا أذكر هنا وصف مكة والحج، سأذكر ذلك عند الكلام على الحجة الأخيرة.

كنيسة بيعة القمامة:

وللنصارى فى بيت المقدس كنيسة يسمونها «بيعة القمامة»، لها عندهم مكانة عظيمة، ويحج إليها كل سنة كثير من بلاد الروم، ويزورها ملك الروم متخفيا؛ حتى لا يعرفه الناس، وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله فبلغ ذلك الحاكم، فأرسل إليه أحد حراسه ــ بعد أن عرفه أن رجلا بهذه الحلية والصورة يجلس فى كنيسة بيت المقدس ــ وقال له : «اذهب عنده وقل له: الحاكم أرسلنى إليك ويقول: لا تحسبنى أجهل أمرك، ولكن كن آمنا فلن أقصدك بسوء»، وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها، وظلت خربة مدة من الزمان.

وبعد ذلك بعث القيصر إليه رسلا، وقدم كثيرا من الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة؛ ليؤذن له بإصلاح الكنيسة، فقبل الحاكم وأعيد تعميرها.

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل، وهى عظيمة الزخرف، من الرخام الملون والنقوش والصور، وهى مزدانة من الداخل بالديباج الرومى والصور، وزينت بطلاء من الذهب، وفى أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام، وهذه الصور مطلية بزيت السندوس.

وقد غُطّى سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدِّها، بحيث لا يحجب منها شيء وذلك حتى لا يصل الغبار إليها، وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم، وهناك ــ عدا ذلك ــ عدة مواضع أخرى كلها مزينة، ولو وصفتها لطالت كتابتى، وفى هذه الكنيسة لوحة مقسمة إلى قسمين عملا لوصف الجنة والنار، فنصف يصف الجنة وأهلها، ونصف يصف النار وأهلها ومن يبقى فيها، وليس لهذه الكنيسة نظير فى أى جهة من العالم، ويقيم بها كثير من القسس والرهبان، يقرءون الإنجيل،ويصلون،ويشتغلون بالعبادة ليل نهار.

* * *

(٢) رحالة عاصروا مواجهة الحملات الصليبية

(الإدريسى - ابن جبير - الهروى - أسامة بن منقذ)

حفل القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى بعدد من كبار الرحالين العرب الذين أفاد منهم التاريخ كثيرا، فيما دونوا ووصفوا، ونلقى الضوء هنا على نتاج أربعة منهم هم الإدريسى، وابن جبير، والهروى، وأسامة بن منقذ.

وسنعرض نتاجا لهؤلاء الرحالة الذين عاصروا الهجمة الصليبية على العالم العربى والإسلامى فى العصور الوسطى. واتخذت الهجمة الصليبية شكل حملات حربية استعمارية على بلاد المسلمين - خاصة منطقة بلاد الشام - بقصد امتلاكها، وقد انبعثت هذه الحركة من الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى، واتخذت من استغاثة البيزنطيين ضد السلاجقة المسلمين ستارا دينيا للتعبير عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق، وسميت باسم الحروب الصليبية نسبة إلى الصليب الذى اتخذه المحاربون شعارا لهم. . والدين منهم براء، واستمرت هذه الحروب من (١٠٩٥ م إلى ١٢٩١م) فى منطقة الشام، وجاءت الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الأدنى وبلاد الشام مفككة سياسيا لا تربط بين أجزائها وحدة سياسية، ولا تهيمن عليها قوة كبرى تستطيع أن تصد الخطر الغربى. . . ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه الخلافة العباسية تعانى ضعفا واضحا، والخلافة الفاطمية فى القاهرة تسير فى طريق الانهيار، ونجحت الحملة الصليبية الأولى فى تكوين عدة إمارات للصليبيين فى الشام وشمال العراق، والاستيلاء على بيت المقدس (١٠٩٩م) حتى كان ظهور عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين محمود ليقوما بدور بارز فى مدافعة الصليبيين وتكوين جبهة إسلامية متحدة، ثم استطاع صلاح

الدين الأيوبى ـ مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر (٥٦٧- ٦٤٨هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠ م) ـ أن ينزل ضربته الكبرى بالصليبيين فى حطين، ثم يسترد منهم بيت المقدس (٥٨٣هـ) واستمر الصراع حتى استطاعت دولة المماليك فى مصر (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م) استئصال شأفة الصليبيين نهائيا من الشام. . .».

أ- الشريف الإدريسى (١١٠٠- ١١٦٤م)

ولد الشريف الإدريسى فى سبتة سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، وهناك تلقى علومه الأولى، ولعله قد توفر على دراسة أمور كثيرة فى قرطبة. ويبدو من كتابه إحاطته بالمعرفة العلمية التى كانت فى عصره إحاطة تامة، إذ يبدو عليه إتقان الحساب والهندسة والفلك والجغرافية، والعلم بالأعشاب ومعرفة الطب، والدربة فى أحوال العالم السياسية، وهذه المعرفة لا شك أنها حصيلة الدرس الطويل والسفر الكثير والملاحظة الدقيقة، أما أسفار الإدريسى ـ وهى التى يسرت له الأسس لكتابة «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» ـ فقد كانت واسعة النطاق. . ففى شمال أفريقيا زار المدن والقرى، والظاهر أنه فعل نفس الشىء فى الأندلس. وتعرف إلى ديار الشام ومصر، حيث أقام مدة طويلة. ويظهر أن إقامته بالشرق كانت طويلة، بصفته أحد النوابغ وأحد الأشراف أيضا. . ولا يستبعد أنه كان ينوى الإقامة على الدوام بأحد أقطار المشرق، بالشام مثلا أو بمصر».

وزار الإدريسى صقلية، حيث تعرف إلى ملكها روجار، الذى أكرمه واحترمه لعلمه، ثم دعاه للإقامة فى بلاطه ليصنع له شيئا فى شكل صورة العالم. . فقبل الدعوة، وأقام هناك نحو عشرين سنة فى جو أقل ما يقال فيه أن العلم والعلماء كانوا فيه موضع تقدير واحترام. وقد صنع الإدريسى خريطة العالم على «لوح الترسيم»، وهو دائرة من الفضة الخالصة، ثم وصف هذه الأقاليم، فخرج من ذلك كتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، وتم له ذلك فى خمس عشرة سنة، ولم يكتف الإدريسى بما عنده من معرفة مختزنة أو اختبار، بل لقد اتصل بكل من له علم بشىء ما، فأخذ منهم ما عندهم، وقابل الأخبار والمعلومات والمعارف،

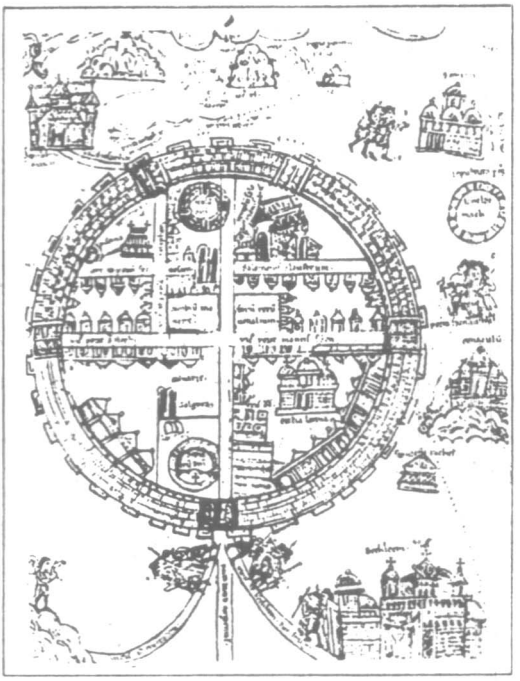

(١)

(٢)

(٣)

١- خارطة للقدس خلال الغزو الصليبي عام ١١٧٠ م

٢- خارطة للقدس تعود للقرن السادس عشر وهي أول رسم طوبغرافي صحيح للمدينة في عهد دولة المماليك عام ١٢٥٠ م .

٣- خارطة للقدس في العهد العثماني عام ١٥١٧-١٩١٧م.

ei-kon.com

وقارن بينها، وقَبِل منها ما ثبتت صحته بالمقارنة والتدليل، وترك ما كثر الاختلاف بشأنه، وهكذا حظى العالم بهذا الكنز القيم، فوصلت إلينا خارطة العالم، ونزهة المشتاق، وقد توفى روجار عام ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤ م، بعد فراغ الإدريسى من عمله، فاضطربت الأحوال فى صقلية، فرأى الإدريسى الخير فى العودة إلى بلده، حيث قضى ما تبقى من سنيه إلى أن توفى سنة ٥٦٠هـ/ ١٦٦٤م..

ويهمنا هنا إلقاء الضوء على وصف الإدريسى لبيت المقدس، وكان تحت الاحتلال الصليبى عندما قدم الإدريسى إلى بلاد الشام خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، ونجح الصليبيون وقتها فى إقامة إمارات صليبية فى عدد من مناطق بلاد الشام، وكان وصف الإدريسى لمدينة بيت المقدس ـ كما يذكر أحد الباحثين ـ «لا تدع مجالا للشك فى أنه يعبر عن رؤية شاهد عيان معاصر للوجود الصليبى بها (خلال أواسط القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى)، ومن ثمَّ تميزت نصوصه حول مدينة بيت المقدس عن نصوص الجغرافيين المسلمين السابقين».

وقد تميز الإدريسى عن الجغرافيين المسلمين الآخرين، الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (على مدى القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثانى عشر، والثالث عشر الميلاديين) بأنه أكثرهم تفصيلا بشأن المزارات المسيحية المقدسة فى فلسطين، ولعل تعليل ذلك أن الكتاب الذى ألَّفه وعنى به «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» قد ألف أصلا بناء على طلب ملك صقلية المسيحى «روجار الثانى».

كتب الإدريسى عن المزارات المسيحية والأماكن الدينية الإسلامية فى مدينة بيت المقدس، ومن المزارات المسيحية التى تحدث عنها الإدريسى «الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة، ويسميها المسلمون قمامة، وهى الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم...».

أما الأماكن الدينية الإسلامية فنجده يتحدث عن: المسجد الأقصى، ويصفه بأنه «ليس فى الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع الذى بقرطبة من ديار الأندلس..» كذلك وصف قبة الصخرة، وأماكن دينية إسلامية أخرى.

أما الزوايا الاقتصادية، فقد تناول الإدريسى النشاط الزراعى فى مدينة بيت المقدس، وذكر «أن مدينة بيت المقدس فى وهدة بين جبال كثيفة الأشجار، أى شجر الزيتون والتين والجميز وفواكه كثيرة».

وهكذا قدم لنا الإدريسى ـ من خلال ترحاله فى مدينة بيت المقدس ـ العديد من الجوانب الدينية والاقتصادية هناك زمن الحروب الصليبية.

ب ـ رحلة ابن جبير (١١٤٥ ـ ١٢٢٠)

ابن جبير عربى أندلسى، واسمه أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى، وهو من مواليد ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م، وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره، ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين فى وظيفة كاتم سره، فاستوطن من وقتئذ غرناطة.

وابن جبير من الرحالة الأندلسيين الذى قدموا إلى بلاد الشام (خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى)، وأرَّخ لرحلة هامة تناول فيها العديد من الجوانب السياسية، والحربية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعقائدية، فى حياة بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وفى بعض الأحيان نجده ينفرد بإيراد إشارات لا نجد لها نظيرا فى رحلات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر، ومن ثم تحتل رحلته مكانة خاصة بين مؤلفات الرحالة المسلمين.

وتتميز «رحلة ابن جبير» عن سواها من الرحلات بأنها أشبه بيوميات سفر صاغها ابن جبير فى أسلوب بارع، وصوَّر فيها بكلام سهل بسيط الأحاسيس، واعتلجت فى نفسه فى المواضع التى زارها، أو عند مشاهدته الآثار التى رآها. فجاءت رحلته ذات نفحة أدبية تمثل ذروة ما وصل إليه هذا الفن عند العرب من إتقان وجودة. هذا إلى عناية فائقة بالرسوم الدينية، والمعاهد الثقافية، والنواحى الاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية، مما يضفى على رحلته صفة التنوع والشمول بالتدقيق والإحصاء والتجربة والتنظيم، والمقدرة على منح المرئيات إطار الحياة والواقع.

لم يقم ابن جبير برحلة واحدة، بل قام بثلاث رحلات، قصد فيها جميعا الحج، الذى كان مقصد كل الراحلين من المغرب إلى المشرق، ودوَّن أخبار الرحلة الأولى فى شبه مذكرات يومية باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ولعله كتبها سنة (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م)، «والرحلة الثانية قام بها ابن جبير لما شاع الخبر المبهج بفتح «المقدس» (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. .»، وكتاب «رحلة ابن جبير» هو رحلة قام بها ابن جبير للحج إلى الأراضى الحجازية، واستغرقت عامين وثلاثة أشهر ونصف الشهر (من شهر شوال ٥٧٨هـ/ فبراير ١١٨٢م، إلى شهر محرم ٥٨١هـ/ أبريل ١١٨٥م). وزار فيها مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية فى عصر الحروب الصليبية.

ولم يدون ابن جبير أخبار هذه الرحلات كلها، بل اكتفى بتسجيل الرحلة الأولى ـ كما سبقت الإشارة فى كتابه المعروف باسم «تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار»، الذى كتبه مؤلفه حوالى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م، وتداولته أيدى القراء مخطوطا فى الشرق والغرب، حتى قام على نشره وطبعه ويليام رايت الإنجليزى سنة ١٨٥٢م، وراجعه بعده دى خويه الهولندى سنة ١٩٠٧م، فى الجزء الخامس من سلسلة جب التذكارية، ومن هنا تأتى أهمية رحلة ابن جبير لكونها معاصرة للحروب الصليبية، وقيادة صلاح الدين الأيوبى. والرحلة بهذا تلقى أضواء على الحياة الاجتماعية فى تلك الحقبة من الزمن كما تكشف جانبا من تاريخ الحروب الصليبية وهى الحروب التى منعته من دخول القدس والوصول إلى أعماق فلسطين فى طوافه، حيث اكتفى بعكا ورأس العين؛ نظرا لاحتلال الصليبيين أجزاء من فلسطين، وتأسيسهم مملكة بيت المقدس الصليبية.

ويشيد ابن جبير بالسلطان صلاح الدين قائلا: الذى لا يأوى لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال مسرجه مجلسه.

وتحت عنوان (من أعجب الأحاديث) يروى ابن جبير طرفا من تكتيك صلاح الدين الحربى (فهو مرابط بقوات ضاربة شرسة حول حصن الكرك، ويورط قوى

الفرنجة المكثفة لتسلك طريقا وعرا ويناوشهم . . . . كرًا وفرًا، والحركة الخفيفة المستمرة قد أقضت مضاجع العدو. ويؤكد ابن جبير أن الكرك وحصن الكرك بقعة من أرض فلسطين وهى سرارة أرض فلسطين، أى أطيبها.

وبالنسبة لبيت المقدس، يذكر ابن جبير فى رحلته المشهورة بيت المقدس فى خمسة مواضع:

١- عندما كان يقارن بين المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها من جهة الأطوال والمساحة، فقال عن مسجد بيت المقدس: إن طوله ٧٨٠ ذراعا وعرضه ٤٥٠ ذراعا، وسواريه ٤١٤ سارية، وقناديله ٥٠٠ قنديل، وأبوابه خمسون بابا.

٢- عندما كان يتحدث عن دمشق، وتحدث عن كنيسة مريم، وقال: إنه ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها.

٣- عندما كان يتحدث عن خروج صلاح الدين لمقاتلة صاحب حصن الكرك الصليبى، وذكر أن بين الحصن وبيت المقدس مسيرة يوم أو أكثر قليلا.

٤- عندما كان يتحدث عن قبة الرصاص القائمة وسط جامع دمشق، فقد قال: إنه لا يوجد أعجب منظرا ولا أعظم سموًا ولا أغرب بنيانا من هذه القبة، إلا ما يحكى عن قبة بيت المقدس.

٥- عندما حدد ابن جبير المسافة بين عكا وبيت المقدس بثلاثة أيام، وبين دمشق وبيت المقدس بمقدار ثمانية أيام.

ويبدو واضحا من العرض السابق أن ابن جبير رجل ذو عاطفة دينية جياشة، ومشاعره الإسلامية واضحة بصورة لا تذكر، ومن ثَمَّ نجد تعبيراته صريحة لا سيما حيال عدائه للصليبيين، فى بلاد الشام.

ج- الهروى (القرن الـ ١٢ الميلادى)

جاء بعد ابن جبير معاصره الرحالة المؤرخ على بن أبى بكر الهروى (وتوفى عام ٦١١هـ) وهو الذى قال عنه ابن خلكان: «طاف أكثر المعمورة» فقد أقام ببيت

المقدس تحت سلطة الصليبيين وألف كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات)، وخص القسم الأوفى منه بوصف بلد مآب، ومدينة طبرية وأعمالها، ونابلس، والقدس الشريف وما حوله، والطريق من القدس إلى مدينة الخليل، والخليل، والطريق من القدس إلى عسقلان.

وأفاد من كتاب الهروى كثير من المؤلفين، منهم المؤرخ الرحالة ابن النديم (٥٨٨- ٦٦٠هـ) والمؤرخ ابن شداد (٦١٣- ٦٨٤هـ)، فى كتابه (الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة) وقسم الكتاب تبعا لنظام الأجناد الخمسة المعمول بها منذ الفتح الإسلامى، ومنها جند فلسطين، وهى الرملة واللد وإيلياء ـ بيت المقدس ـ وبنائه، ولمعة من فضائله، وفضل الصخرة الشريفة، وخراب بيت المقدس، وفتحه، وملوكه، وحروبه، هذا بالإضافة إلى المعلومات عن الحروب الصليبية مما جعل من الكتاب المذكور مصدرا تاريخيا قيما.

كذلك أفاد من الهروى إمام الجغرافيين ياقوت الحموى (٥٧٤- ٦٢٦هـ) صاحب (معجم البلدان) الذى زار فلسطين مرتين: وقال فى تعريفها (إنها آخر كور الشام من ناحية مصر، قصبتها بيت المقدس، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين). ويفسر الحموى الأعلام الجغرافية، ويبين نطقها الصحيح، ويورد الروايات والاشتقاقات المختلفة بشأنها، مع بيان طول المكان وعرضه، وتحديد البرج الذى يقع تحته، فهو بحق جماع للجغرافية فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية، وللرحلات والجغرافية التاريخية، ولم يقتصر الحموى على وصف بلدان جزيرة العرب، بل تعداها إلى جميع البلدان التى عرفها العرب أو سمعوا بها من حدود الصين إلى إسبانيا.

د- أسامة بن منقذ (١٠٩٥ ـ ١١٨٨)

كان أسامة بن منقذ أميرًا فارسًا من أهل الشرق العربى، وقد تنقل فى مصر وسوريا وبغداد فى عداد الرحالين؛ لأن كتاب «الاعتبار» نسيج وحده فى الأدب

العربى، ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة فى تاريخ الفروسية والقومية العربية، تجعلها فى مقدمة ما يجب أن نعنى بدرسه من كتب السلف الصالح، هذا فضلا عن زيارته للقدس.

ولد أسامة بقلعة شيزر فى ٢٧ جمادى الأولى ٤٨٨هـ/ ٤ تموز (يوليو) ١٠٩٥م. وكانت شيزر- الواقعة على بعد أربعة وعشرين كيلو مترا إلى الشمال من حماة - حصن بنى منقذ منذ أن انتزعوها من الصليبيين سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م، مع أنهم كانوا يملكون إقطاعا فى أرضها قبل ذلك بمدة طويلة، وكان من حق مرشد - والد أسامة - أن يتولى الإمارة، لكنه شغف بنسخ القرآن والصيد، فتنازل عنها لأخيه، واتجهت همة الأمير سلطان إلى أسامة يهيئه ليخلفه.. لكن لما رزق ولدا ذكرا فترت همته نحو أسامة، فرأى هذا أن يغادر شيزر، فتغيب بادئ ذى بدء عنها مؤقتا، لكنه لم يلبث أن غادرها نهائيا، وبعد عشرين سنة أصاب القلعة زلزال سنة ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧م قضى على آل منقذ بأسرهم إذ كانوا مجتمعين فى حفل عائلى، عدا أسامة الذى كان غائبا.

عاش أسامة فارسا شهما، وجاب أنحاء الشرق العربى.. صرف معظم شبابه فى البلاط النورى بدمشق، وفى قصر الخليفة الفاطمى بالقاهرة (١١٤٤-١١٥٤م).. وأما كهولته فصرفها عند أتابكة الموصل وفى حصن كيفا.

زار بيت المقدس وحج، وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية، وتعرف إلى كبار الإفرنج، فضلا عن صداقته للخلفاء والملوك، وقبيل وفاته دعاه صلاح الدين إلى دمشق، وأجرى عليه رزقا وأعاد إليه إقطاعه... وأخذ الشيخ يلقى محاضرات فى البديع، ويدرس فى المدرسة الحنفية بدمشق، وقد أملى مذكراته فى هذه الفترة، وتوفى أسامة سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م.

وكتاب «الاعتبار» - بالإضافة إلى ما فيه من عبر رمى إليها الكاتب - يحوى إشارات كثيرة إلى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، والفصل الذى عرض فيه أسامة للإفرنج حافل بوقائع حياتهم وسلوكياتهم.

(٣) ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٨م)

لقد طبع ابن بطوطة الرحلة فى القرن الرابع عشر الميلادى الثامن الهجرى بشخصيته القوية النابضة بالحياة، المتطلعة إلى كل ما حوله بشوق دائم. . ويمتاز هذا الرحالة بأمور كثيرة قلما اجتمعت لرحالة واحد من معاصريه، فقد قضى ثمانية وعشرين عاما يجوب شرق الأرض وغربها، بدأ الرحلة من طنجة، وسار إلى مصر بطريق شمال أفريقيا، ثم زار ديار الشام، وحج وتنقل فى فارس وبلاد العرب، ووصل إلى شرق أفريقيا، ثم زار القرم وحوض الفولجا الأدنى، ودخل القسطنطينية فاحتفى به ملكها قسطنطين الرابع (١٣٤٤ - ١٣٦٣). واتجه بعدها شرقا إلى خوارزم وبخارى وتركستان وأفغانستان والهند، وخدم ملك دلهى ثمانى سنوات، وتعرف إلى جزر المالديف وبعض جزر الهند الشرقية والصين، وعاد إلى طنجة، وبعد هذه الرحلة الطويلة (٧٢٥- ٧٥٠هـ/ ١٣٢٥-١٣٤٩م) قام برحلتين قصيرتين نسبيا، الأولى فى الأندلس فى حدود سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠هـ والثانية إلى السودان العربى، ودامت نحو سنتين، بدأها سنة ٧٥٢م/ ١٣٥٢م، وفى هذه الرحلة وصل إلى تمبكتو، وأبحر فى نهر النيجر، وعاد إلى فارس بطريق الصحراء الكبرى، وقد قدرت المسافة التى قطعها ابن بطوطة فى أسفاره بنحو ١٢٠,٠٠٠ كيلو مترًا وقد جرب ألا يقطع طريقا مرتين، ونجح فى ذلك إلا فيما ندر، ولا يعرف تاريخ الرحلات من اجتاز مثل هذه المسافة قبل العصور الحديثة، ويبدو لنا أن ابن بطوطة رحالة محترف.

وابن بطوطة كان فقيها عالما، جرى على تقليد أسرته التى عرفت باشتغالها بالعلوم الشرعية، وقد عرف الحجاج له فضله فقدموه قاضيا عليهم، وهم بعد فى تونس فى طريقهم إلى مصر. . وقد ولى القضاء فى جزائر المالديف أيضا.

وابن بطوطة لم يكن جغرافيا . . فهو لم يهتم بالأقطار إلا قليلا ، وحتى المدن ، إنما وصفها باعتبار ما يقطنها من الناس ، فقد كان الناس موضع اهتمام الرحالة ؛ ولذلك فهو يفيدنا فى التاريخ والاجتماع أكثر مما يفيدنا فى الجغرافيا .

والقرن الذى عاش فيه ابن بطوطة وارتحل وتنقل كان بالنسبة إلى المغرب العربى قرن اضطراب وحروب وفتن ، وبالنسبة إلى الأندلس كان عصر تدهور للسيادة العربية وانحلال للسلطان السياسى ، أما بالنسبة إلى الشرق العربى ، فقد كانت الحالة على غير هذا . . فقد وفق المماليك إلى إقصاء الصليبيين عن ديار الشام ، وإرساء قواعد حكم قوى ، وإن لم يكن دائما صالحا فى مصر والشام والحجاز ، وكانت الغزوات المغولية قد قوضت أركان الخلافة العباسية ، لكن هؤلاء المغول كانوا قد وسعوا رقعة الإسلام كثيرا ، وركزوا أسسه فى أجزاء واسعة ، ومن ثم فقد كان الإسلام فى المشرق فى فترة من فترات قوته من حيث السياسة والسلطات .

وهذا ابن بطوطة ينتقل ، ويرحل ويحل ، ويُعَلِّم ويعظ ، ويحدِّث ويتولى القضاء ، ويسفر ، ويتزوج ويطلق حيث حط رحاله ، دون أن يتقيد بحدود سياسية لدولة دون أخرى ، هكذا وعى نفسه ، وهكذا أدركه الناس وقبلوه ، لا بعد أن فكروا فيه كفرد ، ولكن على اعتبار أن هذا هو الواقع المقبول .

إلا أنه حَرِىٌّ بنا أن نشير هنا إلى أن ابن بطوطة عاش فى عصر ، كانت حضارة الغرب والإسلام قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة ، لعل أهمها التجميد الرسمى الذى فرضته الدولة على العقل ونشاطه ، فحصرت الجهد الفكرى فيما من شأنه أن يقوى كيانها ـ مؤيدا بالدين ـ ويظهر زيغ خصومها ، وهكذا فالحضارة العربية تبدو فى صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب ، وتطلع علينا وكأنها لا دينامية لها .

ولد ابن بطوطة فى طنجة فى ١٤ رجب سنة ٧٠٣هـ/ ٢٤ شباط (فبراير) ١٣٠٤م ، ولما بدأ رحلته إلى المشرق فى رجب ٧٣٥هـ/ ١٣٢٥م كان قد تفقه فى علوم عصره الشرعية ، متأثرا فى ذلك بأسرته وبلده ، ومن السهل أن يتابع القارئ تنقل ابن بطوطة فى المغرب وفى مصر . . فقد مر بالجزائر وتونس وليبيا وأعرس

قبل أن يصل مصر، وكانت الإسكندرية أول مدينة مصرية نزلها، ثم انتقل منها إلى القاهرة معرجا على مدن كثيرة فى الدلتا ليست على الطريق العادى ـ طريق الحاج أو التاجر ـ ومن القاهرة رافق الحاج الأفريقى إلى عيذاب ليجتاز البحر الأحمر إلى الحجاز . . لكن الحدربى ـ سلطان البجاة ـ كان يومها فى حرب، وقد خرق المراكب، فلم يتيسر اجتياز البحر الأحمر، فعاد ابن بطوطة إلى القاهرة، واجتاز إلى الشام بطريق سيناء، فنزل فى غزة «وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر»، ومنها إلى الخليل فالقدس . .

وتوفى ابن بطوطة فى ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨ أو ١٣٦٩م بعد أن أملى رحلته، على قد (فرغ من كتابتها سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، وبسبب اهتمام السلطان أبى عنان بأخبار الرحالة، أصدر أمره بتدوينها وأن تملى على كاتبه ابن جزى، وبذلك دونت هذه اليوميات الإنسانية والصور الفريدة للمجتمع الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها فى الربع الثانى للقرن الرابع عشر الميلادى الثامن الهجرى .

ولقد خص ابن بطوطة بيت المقدس بزيارتين فى العصر المملوكى وقدم وصفًا دقيقًا للأماكن الدينية الإسلامية وفى مقدمتها المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكذا الأماكن المسيحية مثل كنيسة القيامة، كما سجل أعمال الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب والسلطان المملوكى الظاهر بيبرس لحماية بيت المقدس من الأعداء ولم ينس ابن بطوطة إلقاء الضوء على الحياة الاجتماعية والعلمية هناك .

وفيما يلى النص الكامل لما جاء فى رحلة ابن بطوطة إلى القدس كما وردت فى رحلاته المعروفة بـ [تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار] :

نص رحلة ابن بطوطة

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وأن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة واثنتان

وخمسون ذراعا بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا، وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الإمام، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى فهو مسقف فى النهاية من إحكام الفعل وإتقان الصنعة، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفى المسجد مواضع سواه مسقفة.

ذكر قبة الصخرة

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا، قد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف وهى قائمة على نشر فى وسط المسجد، يصعد إليها فى درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضا، محكم الصنعة وكذلك داخلها. وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الذواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهى تتلألأ أنوارا أو تلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها فى محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفى وسط القبة الصخرية الكريمة التى جاء ذكرها فى الآثار، فإن النبى ﷺ عرج منها إلى السماء، وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة مقدار بيت صغير. ارتفاعها نحو قامة أيضا، ينزل إليها على درج وهنالك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها،أحدهما ــ وهو الذى يلى الصخرة ــ من حديد بديع الصنعة، والثانى من خشب، وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع. هنالك بنية يقال: إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء، ومنها أيضا قبر رابعة البدوية ــ منسوبة إلى البادية ــ وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة، وفى بطن الوادى المذكورة كنيسة يعظمها النصارى ويقولون: إن قبر مريم عليها السلام بها،

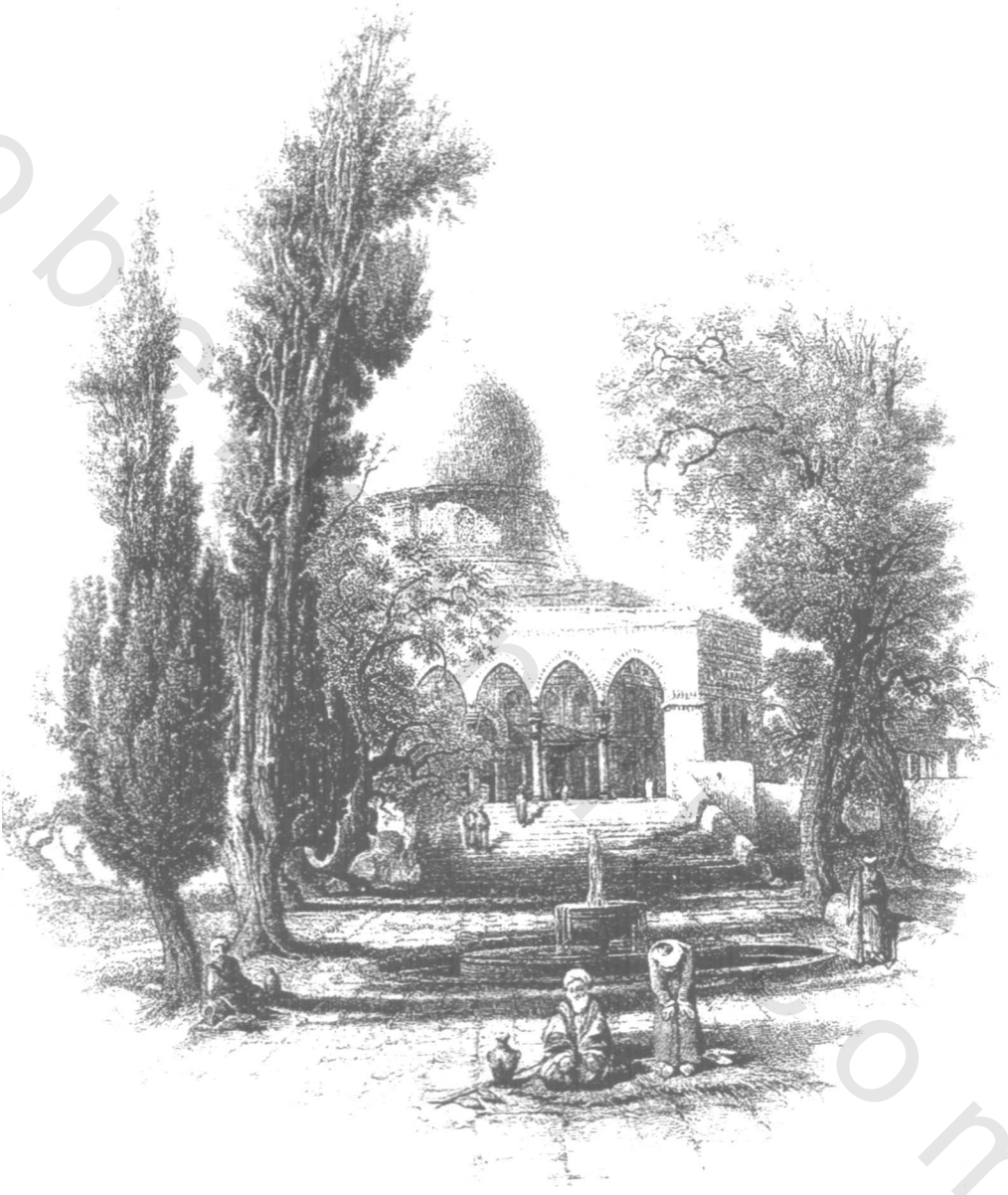

مسجد قبة الصخرة المشرفة ـ للرسام روبرت عام ١٨٧٥م

وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهى التى يكذبون عليها ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها، وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين

وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه، وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها، ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى، ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاة الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى نزيل القدس، ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين، ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى، من أهل أرز الروم، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى صحبته ولبست منه خرقة التصوف، ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة، وأطلالا دارسة، وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان إتقانا وحسن وضع، وأصالة مكان، وجمعا بين مرافق البر والبحر، وبها المشهد الشهير، حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل أن ينقل إلى القاهرة، وهو مسجد عظيم سامى العلو، فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيد وكتب ذلك على بابه، وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه إلا حيطانه، وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن، وهى ما بين قائم وحصيد، ومن جملتها أسطوانة حمراء عجيبة، يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان. وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم عليه السلام ينزل إليها فى درج متسعة، ويدخل منها إلى بيوت، وفى كل ناحية من جهاتها الأربع تخرج من أسراب

مطوية بالحجارة، وماؤها عذب وليس بالغزير، ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادى النمل، ويقال:إنه المذكور فى الكتاب العزيز. وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور، وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل إليه من صدقات الزوار، ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة، وهى ــ فلسطين ــ مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الأسواق، وبها الجامع الأبيض، ويقال: إن فى قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين عليهم السلام، وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى، ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار، مطردة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتونا، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق، وبها تصنع حلواء الخروب، وتجلب إلى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء، ويجلب ذلك الرب أيضا إلى مصر والشام. وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب. والمسجد الجامع فى نهاية من الإتقان والحسن، وفى وسطه بركة ماء عذب، ثم سافرت منها إلى مدينة عجلوان (وهى بفتح العين المهملة) وهى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة، ويشقها نهر ماؤه عذب، ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور، وهو واد بين تلال به قبر أبى عبيدة الجراح أمين هذه الأرض رضي الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ــ وبتنا هنالك ليلة ــ ثم وصلنا إلى القصير، وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه تبركت أيضا بزيارته، ثم سافرت على الساحل فوصلت إلى مدينة عكة وهى خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الأفرنج بالشام، ومرسى سفنهم، وتشبه قسطنطينية العظمى، وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر، يقال: إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام، وينزل إليها فى درج، وكان عليها مسجد بقى منه محرابه، وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام، ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهى خراب، وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض. ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولم يستنشق ثم مسح بعض رأسه، فأخذت عليه فى فعله، فقال لى: إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس. مدينة

صور هى التى يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثانى للبحر، ولبابها الذى يشرع للبر أربعة فصلات كلها فى ستائر محيطة بالباب، وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين، وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا منه؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك، وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم. وكان لعكة أيضا ميناء مثلها، ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار، ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا، وهى على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يُحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر. نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشمونى المصرى، وهو حسن الأخلاق كريم النفس، ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها، وبها الحمامات العجيبة، لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء، وماؤها شديد الحرارة. ولها البحيرة الشهيرة، طولها نحو ستة فراسخ وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ. وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء فيه قبر شعيب عليه السلام، وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام، وقبر سليمان عليه السلام، وقبر يهودا وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم، وقصدنا منها زيارة الجُب الذى ألقى فيه يوسف عليه السلام، وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية، والجُب كبير عميق، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر، وأخبرنا قيمه أن الماء ينبع منه أيضا، ثم سرنا إلى مدينة بيروت، وهى صغيرة حسنة الأسواق وجامعها بديع الحسن ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه، وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون أنه من ملوك الغرب، وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز، وعليه زاوية يطعم بها الوارد، ويقال: إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف، وقيل السلطان نور الدين وكانوا من الصالحين، ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها.

***

(٤) رحلات العلويين الحضارم إلى القدس
(١٩٢٤م)

عزم ثلاثة من علماء السادة العلويين الحضارم على زيارة القدس ومشاهدة مآثرها الدينية عام ١٣٤٣ هجرية وهم:

١- **السيد شيخ بن محمد الحبشي:** ولد فى مدينة تريم فى حضرموت عام ١٢٦٥ هـ، وتوفى بمدينة سيوان فى ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٤٨ هـ، وهو رائد فن الرحلة المطولة الحضرمية، ولم يسبقه أحد من قبل فى التدوين، وقد رحل إلى إندونيسيا سنة ١٢٩٢ هـ، ثم عاد إلى حضرموت سنة ١٣١٠هـ. وتلقى العلوم عن كثير من شيوخ عصره فى حضرموت والحجاز، وله بعض الإنتاج الأدبى فى قصائد شعرية، وتقريض نثرى على كتاب عقد اليواقيت الجوهرية.

٢- **السيد محمد بن هادى السقاف:** ولد فى حضرموت سنة ١٢٩١هـ وتوفى بها سنة ١٣٨٢ هـ. وتتلمذ على أيدى كثير من شيوخ عصره ففاق أقرانه، وقد أجازه شيوخه بالتدريس والإفتاء، وتخرج على يديه عدد كبير من الطلبة، وله عدة مؤلفات فى الوعظ والإرشاد والفقه والنحو.

٣- **السيد عبدالرحمن بن جنيد الجنيد:** المولود فى سنغافورة سنة ١٢٩١هـ/ (١٨٧٤م) وتوفى بها سنة ١٣٦٩هـ. ونشأ فى بيت علم وصلاح، وقد أرسله والده إلى حضرموت سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م لتلقى العلم عن الشيوخ الكثر فيها، وبعد أن غرف من مناهلها عاد إلى مسقط رأسه سنغافورة، إلا أنه عاد إلى حضرموت للاستزادة من شيوخه وذلك سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م، وفى مدينة تريم زاول مهنة التجارة والزراعة ـ مع تلقى العلم ـ ولكنه عاد إلى سنغافورة،

وأسس مدرسة سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م وأطلق عليها اسم «مدرسة الجنيد الإسلامية».

ثم عاد مرة ثالثة إلى حضرموت للتفرغ لمشاهدة المآثر الإسلامية فى حضرموت وبعض البلدان الأخرى، ومنها القدس الشريف، ثم توجه من بيروت إلى يافا.

وقدم د. عبد الله حامد الحييد الأستاذ المشارك بقسم التاريخ جامعة أم القرى دراسة جديدة يغطى فيها هذه الرحلة، ويسجل أبرز مشاهدات الرحالة الثلاثة فى القدس، وتم نشر الدراسة فى كتاب [بحوث مصادر القدس] الذى نشرته كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٩٨م،

١- مشاهدات الرحالة الثانى السيد محمد بن هادى السقاف وعنوان رحلته: (الرياض الوردية فى الرحلة المصرية والقدسية) وقد بدأ الرحالة انطلاقته من مدينة سيون فى حضرموت يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٤٣هـ إلى مصر ومنها إلى القدس فى ٧ ربيع الأول ١٣٤٧هـ.

ويبدأ د. عبد الله حامد بعرض وقائع الرحلة بذكر ما كتبه الرحالة شيخ بن محمد الحبشى فى رحلته: الشاهد المقبول، فبعد مكوثه فى بيروت أياما، سافر إلى القدس يوم ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ هـ مارًا بيافا، ولم تصادفه عقبات؛ لأنه فى هذه الفترة لم تكن فلسطين بعد فى أيدى الظلمة اليهود، فوصلها بعد ست ساعات بصحبة المزور الشيخ عبد الله الأنصارى، وقد نزلوا فى فندق الأنصارى، فكان إيجار الغرفة مجيديا ونصفًا، وبعد أخذ قسط من الراحة توجهوا إلى المسجد الأقصى لزيارة ما به من مآثر، فأول المشاهد التى زاروها هى الصخرة، فدخلوا تحتها حيث موضع قدم النبى ﷺ، وهى كانت مرتفعة، كما يوجد إلى جانب الدرج عمود رخام متصل بالصخرة، وقد شاهدوا محراب سيدنا داود عليه السلام، ومحراب سيدنا سليمان عليه السلام، وبعد ذلك اتجهوا إلى داخل المسجد الأقصى الذى وصفه الرحالة بالحسن والجمال، ووجد على منبره كتابة تقول «فرغ من صلاحه سنة ٥٥٤ هـ، عمارة الملك نور الدين» ثم شاهدوا مكانا يقال له كرسى سيدنا سليمان عليه السلام، ثم إلى مكان آخر نزلوا فى درج تحت المسجد الأعلى فشاهدوا فى أسفله مسجدا آخر فتجول الرحالة إلى أن وصلوا عند مهد

من حجر منحوت، فقيل له: إنه مهد سيدنا عيسى عليه السلام فى حالة تربيته. وبعد الخروج اتجهوا إلى البيعة التى فيها ضريح السيدة مريم، والنزول إليه مقدار دورين، وهنا توجد الإضاءة بكثرة، كما فيها القسوس ـ القساوسة ـ قائمون نحو السيدة مريم، ثم إن هنا نسوة كن ساجدات نحو الراهب الكبير. ثم سمح لهن بدخول الضريح، حيث صورتها وصورة سيدنا عيسى توجدان فوق القبر.

وبعد خروجهم مرّوا بساحة فيها حديقتان توسطهما منزل مكتوب على بابه باللغة العربية وبخط واضح «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى على الفقهاء من أصحاب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس سنة ٥٨٨هـ». وهذه المدرسة حولت إلى كنيسة للفرانصيص ـ الفرنسيين ـ حسب تعبيره، وبعد الدخول وجدوا ألواحا معلقة ومكتوبا فيها باللغة العربية أحاديث رواها الشيخان، ثم اتجهوا إلى كنيسة القمامة كما يقول الرحالة، وهنا التصحيف واضح، فهى كنيسة القيامة، فوجدوا فى داخلها مشاهد تقشعر منها الجلود ـ حسب تعبيره ـ لأنها تخالف العقيدة الإسلامية، وقد استغرب الرحالة من كون بواب الكنيسة مسلمًا، فقال الأخير للرحالة ومن معه: «انظروا إلى قلة عقولهم» فأجاب الرحالة «كيف ترضى بالجلوس فى هذا الموضع» فقال: «أقامنى الله فى ذلك».

وبعد مشاهدة مآثر القدس اتجهوا إلى مدينة الخليل فى سيارة أجرتها خمسة مجيدى وتناولوا الغداء فى ساحة معدة للزوار، ومنها إلى المسجد الكبير الذى يضم ضريح سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وسيدنا إسحاق وسيدنا يعقوب عليهما السلام، وسيدتنا سارة وغيرهم من الأبناء، ثم دخلوا إلى مكان كهيئة التابوت، فقيل لهم: إن فى هذه البئر أرواح سبعين من الأنبياء.

ثم اتجهوا إلى بيت لحم، وكانت قرية عظيمة، وفيها أبنية عظيمة، وسكانها نصارى، وقد شاهدوا موضع ميلاد السيد المسيح، وهو محل مظلم لكن فيه كثير من المصابيح والشموع، كما شاهدوا موضع النخلة، وهو تحت الأرض وهنا يوجد مكان تعليم القسوس. وقد عاد الرحالة ومن معه إلى القدس، وفى اليوم الثانى غادروها إلى يافا.

٢- وبعد الانتهاء مما شاهده الرحالة الأول فى القدس وما حولها، بدأ دكتور حامد عبد الله الحييد فى عرض مشاهدات الرحالة الثانى السيد محمد بن هادى السقاف فى رحلته، وقد استقل الرحالة ومن معه القطار من القاهرة إلى بيت المقدس، ونزلوا فى زاوية نبى الله داود للسكنى فيها والاستراحة، ثم بدأوا زيارتهم بالصخرة، فوجدوا محاريب سيدنا داود وسيدنا سليمان ورأوا ثقبا وسط الصخرة، وهو الذى يقال: إن المعراج كان منه، ثم وقفوا عند المحراب الذى صلى النبى ﷺ، بالأنبياء منه ليلة الإسراء والمعراج، كما شاهدوا المحل الذى غاصت فيه أقدام النبى ﷺ، كما شاهدوا موضع قدم النبى ﷺ وبعض شعراته فى حجر منفصل عن الصخرة، وبعد ذلك اتجهوا إلى محكمة داود ثم كرسيه، ثم إلى الكنيسة التى دفنت فيها سيدتنا مريم، وهى تحت الأرض ينزلها الزائر سبع عشرة درجة، ثم زاروا السيد محمد العلمى الحسينى، وينزل الزائر أيضا عشرين درجة تحت الأرض، كما يوجد مسجده هنا.

وبعد الانتهاء من مشاهدة مآثر القدس اتجه الرحالة ومن معه إلى مدينة الخليل للزيارة ووصلوها بعد ساعة إلا ربع بالسيارة فزاروا المشاهد هنا: وهم سيدنا إبراهيم وزوجته سارة ونبى الله إسحاق وزوجته رفقة، والنبى يعقوب وزوجته لايقة، ثم نبى الله يوسف، ثم خرجوا من المسجد لزيارة سيدنا إلياس، ثم السيدة راحيل أم سيدنا يوسف، ثم اتجهوا إلى نبى الله موسى ويبعد مكانه عن القدس مسافة ساعة بالسيارة.

وقد مروا على إبراهيم بن أدهم، والنبى عزير، ثم وصلوا إلى القدس وعادوا إلى الزاوية حيث زارهم فيها العلامة السيد محمد بن عبد الرازق الدجانى الحنفى، وذلك للترحيب بهم وضيافتهم، ومن عجيب الصدف أن صاحب الرحلة السيد محمد بن هادى السقاف ومضيفه السيد محمد الدجانى يلتقيان فى عمود النسب النبوى فى على زين العابدين، فالأول على محمد الباقر، والثانى على أخيه زيد، وقد أخبرهم الدجانى أن جدهم السيد أحمد قدم إلى القدس سنة ٩٢٥ هـ وعدد ذريته الآن خمسمائة.

ويوم الجمعة شاهدوا مكان المائدة التى نزلت على سيدنا عيسى، ثم المقبرة التى تسمى مامُن الله، وبعد الصلاة اتجهوا إلى طور الزيتون الذى يقال: إن سبعين نبيا

مقبور فيه، وكذلك سلمان الفارسى، ورابعةالعدوية، كما زاروا مسجد سيدنا سليمان الذى يضم أعمدة كثيرة وبه محراب السيدة مريم، ومحراب سيدنا عيسى والحواريين، وعند بابه يقع مهد سيدنا عيسى وجامع سيدنا داود.

وفى أثناء إقامتهم فى القدس لم يفتهم زيارة بعض الزعماء الفلسطينيين الذين منهم السيد الشريف الحاج أمين الحسينى مفتى الحرم القدسى.

ومن الزعماء الذين زارهم الرحالة ومن معه العلامة محمد عارف الدجانى، وكانت جلسة طويلة تبودلت فيها شتى الأحاديث، ومنها السياسة وأحوال العالم التى سأل عنها السيد الدجانى صاحب الرحلة السيد السقاف فرد الأخير عليه قائلا: أما عندنا تحقيق فى ذلك، فقال له: «كيف والجرائد تخبر عن الأحوال فقال: ما لنا اطلاع على الجرائد لعدم وصولها إلينا، فقال: لكنكم لا بد أنكم تسمعون الأخبار من الغير، فرد صاحب الرحلة قائلا: «نحن نقول اللهم أصلح من فى صلاحه صلاح المسلمين، وأهلك من فى هلاكه صلاح المسلمين، ونسأله أن يعز الإسلام على يد من أراد من العباد المؤمنين، وكان هذا الاجتماع يوم الجمعة، وبانتهائه انتهت زيارة الرحالة ومن معه، ثم يوم السبت الموافق ٢٩ جمادى الآخرة غادروا القدس إلى مصر مرة ثانية.

وينهى د. عبدالله حامد الحييد مشاهدات الرحالة الثلاثة فى القدس وما حولها بما كتبه عبدالرحمن بن جنيد فى رحلته والتى عنوانها: «هدى الخلف إلى مآثر السلف»، فالرحالة غادر القاهرة ومن معه إلى القدس يوم ٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٧ هـ.

وأول ما بدأوه بالزيارة فى القدس هو مقام السيد محمد العلمى من ذرية الحسن بن على، وزوجته رابعةالعدوية، والنزول إلى القبر إحدى وعشرين درجة، ثم زار مكان عصا موسى، وهناك حجرة سوداء علامة لمقامه، ثم محل عروج سيدنا عيسى، ثم مقام سليمان القارى والشهداء، وكلهم فى جبل الزيتون، ثم إبراهيم بن أدهم، ثم معبد سيدنا إبراهيم، وبعده سيدنا عكاشة، ثم سيدنا قيمه وأولاده فى طريق يافا، ثم مسجد سيدنا داود حيث أدوا صلاة المغرب فيه.

وفى اليوم التالى ـ وهو الجمعة ـ زاروا باب حطة فولجوا فيه، ثم قبة سيدنا سليمان بن داود وبعض المآثر الأخرى، ثم اتجهوا إلى قبة الصخرة، فشاهدوا فيها محاريب سيدنا داود وسليمان، وإبراهيم الخليل والخضر، ومحل رأس النبى ﷺ، ثم شاهدوا مكان عروجه إلى السماء وهو خرق فى ذات الصخرة، ثم شاهدوا بير الأرواح، كما شاهدوا القفص الذى فيه قدم النبى ﷺ، وعلى يساره محراب سيدنا حمزة بن عبد المطلب، ثم اتجهوا إلى المكان الذى أم النبى ﷺ فيه، الأنبياء ليلة المعراج، ثم محراب سيدنا إدريس، ثم باب الجنة، ثم شاهدوا محكمة داود، ثم إلى الميزان، وهو عبارة عن عكوف والتى كان قريبا منها منبر كان يخطب عليه السلطان صلاح الدين الأيوبى، ثم نزلوا فى درج إلى عند شجرة الزيتون، وقريبا منها حوض كبير، وعليه بزابيز للوضوء، وفى وسط الحوض بركة يأتيها الماء فى مواصير من بركة سليمان، والتى تبعد مسافة ساعة ونصف بمشى الرجل، ثم مشوا إلى المسجد الأقصى وهو بجهة القبلة، ثم زاروا محل صلاة سيدنا يحيى، ثم محلا يقال له رجال الأربعين، ولعل ذلك قبورهم، ثم زاروا جامع سيدنا عمر بن الخطاب، وبعد الخروج منه وجدوا منبرا من خشب الأبنوس، والذى صنعه حميد بن ظافر الحلبى، وقد مضى عليه نحوا من ثمانمائة سنة، وذلك فى عصر السلطان صلاح الدين الأيوبى، وهناك توجد بئر الورقة، وقد شاهد الرحالة فى هذا الوقت ترميم المسجد الأقصى فوجده فى غاية الإتقان والزخرفة، ثم زاروا عدة محاريب هنا. وبعد ذلك اتجهوا إلى باب التوبة وباب الرحمة، وهما البابان اللذان دخل منهما سيدنا عمر بن الخطاب عند استلامه مدينة القدس، وزاروا كرسى سليمان، حيث كان يدير حكمه من هنا، ثم خرجوا من باب الأسباط أحد أبواب الحرم المقدسى العشرة.

ومن برنامجهم بعد عصر يوم الجمعة كان زيارة كنيسة القيامة، فشاهدوا المكان الذى يقال: إنهم غسلوا السيد المسيح فيه، ثم دخلوا محل خروج النور فى زمن سيدنا موسى ويسمونه شم النسيم، وبعد ذلك طلعوا إلى أعلى الكنيسة، ثم نزلوا ثلاثين درجة لمشاهدة قبر السيدة مريم، ثم بعد الانتهاء استأجروا سيارة لتطوف بهم حول المدينة القديمة والجديدة، وقد استمروا فى ذلك إلى غروب الشمس.

ثم فى صباح يوم ١٠ ربيع الأول خرجوا فى سيارة إلى قبر السيدة راحيل والدة سيدنا يوسف، ثم اتجهوا لمشاهدة برك سليمان، وكانت إحداها طبيعية والاثنتان الأخريتان مبنية، ومن هنا إلى مكان سيدنا يونس، ثم إلى مدينة الخليل، فدخلوا الحرم الإبراهيمى فوقفوا أمام حجرة سيدنا إبراهيم الخليل للزيارة، ثم زوجته سارة، ثم سيدنا إسحاق وزوجته رفقه، ثم سيدنا يعقوب، ثم سيدنا يوسف وزوجته، وبعدهم لايقة زوجة سيدنا يعقوب أخت سيدتنا راحيل، وقد أنهوا زيارتهم بالغار المسمى تربة الأنبياء، وبعد ما شاهدوا كل المآثر فى مدينة الخليل، اتجهوا إلى بيت لحم حيث دخلوا كنيستها، وهى محل ولادة سيدنا عيسى عليه السلام، والنزول إليه اثنتى عشرة درجة.

وبعد الانتهاء من زيارة المآثر السابقة، اتجهوا إلى الأسواق لمشاهدتها، ثم العودة إلى القدس، حيث جوها كان أبرد مما هو عليه فى مصر، كما يقول الرحالة، وعلل ذلك بأن المنطقة الواقعة فيها القدس جبلية، كما ذكر أن لليهود هنا حارة بدأوا فى عمارتها حديثا، ولكن أغلب المنطقة لا زالت فضاء، والطقس هنا جميل جدا، وارتفاع أغلب المنازل هنا دور واحد، ولكن أحيانا تصل إلى أربعة أدوار.

ثم يصف البلدة القديمة بأن شوارعها ضيقة جدا، ومرصعة بالحجارة ومن ضيق الشوارع فإن العربات لا تدخل فيها، إلا شارعا واحدا فقط هو شارع الواد، كما لاحظ أن جميع السوق مسقوف، ويحيط بالمدينة سور من الحجر، ولها خمسة أبواب: باب النصر، باب الخليل، باب داود، ثم باب الأسباط.

ولم ينسوا زيارة البحر الميت وزيارة سيدنا موسى، وفى أثناء سيرهم وجدوا أشجار الموز وتسقى من ماء الجبل، وبعد مغادرة هذه المنطقة بدأت الطرق تشبه ما عليه فى الحجاز ـ كما يقول صاحب الرحلة ـ ليس فيها عمارة وإنما طبيعية، ثم وصولا إلى نهر الشريفة الذى ينبع من طبرية، ويصب فى البحر الميت الذى وصلوه فوجدوه بحيرة عظيمة، كما يوجد فندق هنا، وخمسة بيوت؛ لأن الباقية خربت بزلزال قبل عامين من زيارته لهذه المنطقة.

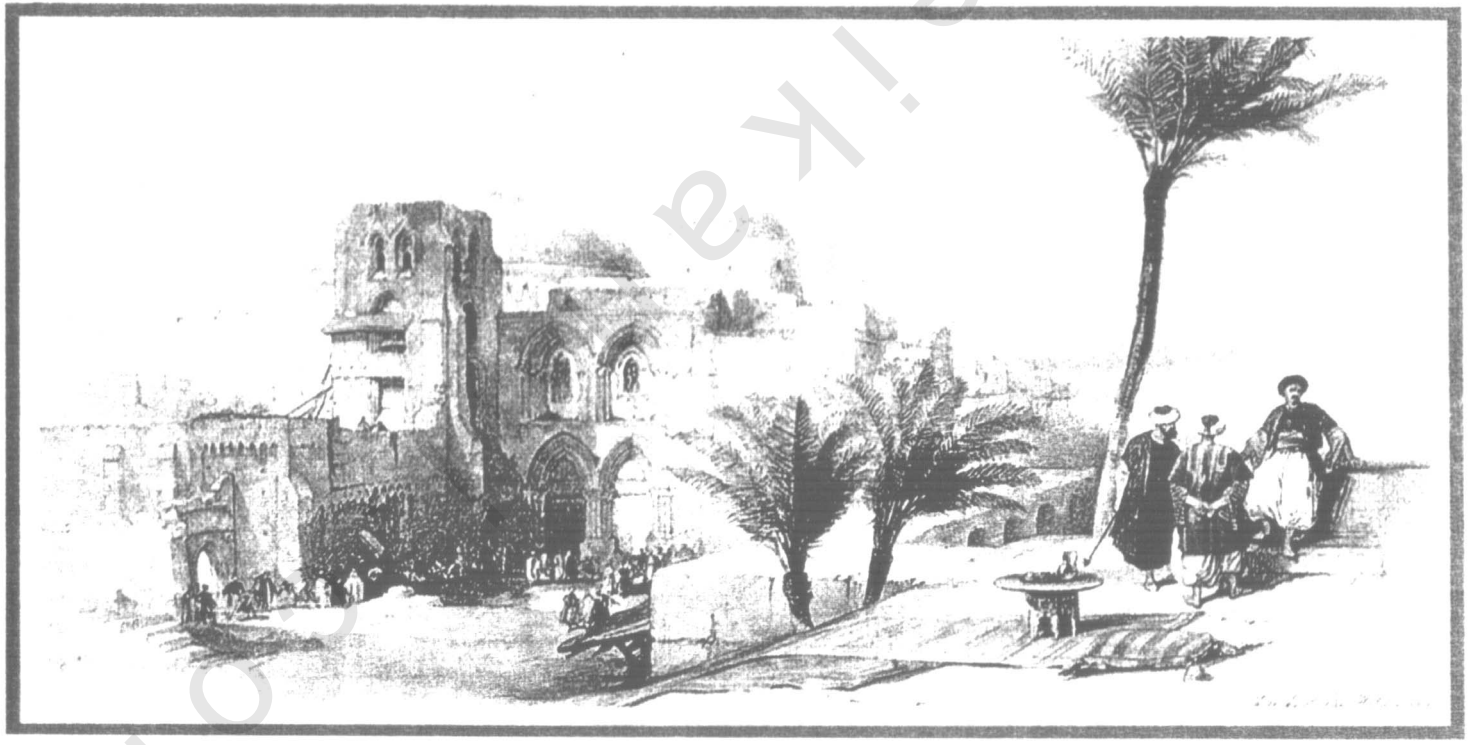

كنيسة القيامة ـ للرسام روبرت عام ١٨٤٠م

ويشبه ملوحة ماء البحر الميت بالملح الإنجليزى من شدة ملوحته، وقد اغتسل بعض من كان يرافقه فى البحر الميت إلا أنهم ما استطاعوا الغوص فيه. وبعد أن انتهوا من زيارة منطقة البحر الميت اتجهوا إلى مقام سيدنا موسى عليه السلام، فصلوا فى مسجده، ثم اتجهوا إلى مقام سيدنا عزير، وبعد ذلك عادوا إلى القدس، وبعد العصر خرجوا لمشاهدة بعض الأماكن فيها.

وبعد انتهائهم من مشاهدة آثار القدس وما جاورها غادروها يوم ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٧هـ.

وبهذا التاريخ ينتهى ما دونه الرحالة عما شاهده من آثار فى مدينة القدس وما جاورها، وبه ينتهى ما دونه الرُحَّل الثلاثة عما شاهدوه فى القدس وما جاورها من مآثر، ويرى د. عبد الله حامد أن الهدف من الرحلات كان زيارة المآثر الإسلامية وخاصة ما هو موجود فى القدس، والالتقاء بالعلماء للنقاش العلمى، وتبادل الإجازات، ومشاهدة بلدان أخرى فى العالم الإسلامى، ويلاحظ د. عبد الله أن هناك بعض المقارنات بين ما شاهده الرُحَّل أثناء تجوالهم وما هو عليه فى حضرموت.

وقد اتجه الأول من بيروت إلى القدس، بينما اتجه الثانى من مصر إلى القدس. هذا ومتى حدثت الرحلات؟ قبل الاغتصاب الصهيونى لفلسطين فلم يجد هؤلاء أى عرقلة فى الوصول إلى القدس، وبعد الاغتصاب انقطعت الصلة بين العالم العربى وفلسطين.

وفى القدس بدأ الأول والثانى بزيارة الصخرة بينما الثالث بدأ بزيارة السيد محمد على العلمى من ذرية الحسن، وكذلك زار الأول والثالث كنيسة القيامة، بينما لم يدخلها الثانى.

واسترسل الأول والثالث فى مشاهدة الأماكن، بينما الثانى اقتصر على قليل من المشاهد، هذا وقد زار الجميع مدينة الخليل والحرم الإبراهيمى، وزار الأول والثالث بيت لحم، ولم يزره الثانى. وزار الثالث فقط البحر الميت.

ووصف الرحالة الثالث مدينة القدس، ويشير إلى أن حارة اليهود فى القدس حديثة العهد.